

من

# وجوه الفكاكة



إعداد:

إياد فرعون



جرؤس بؤرس

من  
وجوه الفلاحة

# من وجوه الفلكية

إعداد:  
إياد فرعون



جرؤس برس

جميع الحقوق محفوظة  
الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م - ١٤٢١ هـ



**JARROUS PRESS** جروس برس

هاتف : 443542 - 627724 (06)

فاكس : 443542 6 00961

ص.ب: 189 P.O.Box:

طرابلس-لبنان Tripoli - Lebanon

e-mail : jarrous\_press@yahoo.com



## المقدمة

مظلوم أدب الفكاهة، ظلّمه النقاد عندما تواطؤوا عليه وجرّدوه من الصفة الأدبية، وظلمه الدارسون عندما تجاهلوه ولم يعطوه حقه من الدراسة والبحث، وظلمه الباحثون والناشرون عندما اتفقوا على حرمانه من حق الحياة، فهل بقي لأدب الفكاهة نصير؟

نعم، وأيّ نصير، إنه جمهور واسع من محبي المزاح وعشاق النوادر الذين يطربون للفكاهة ويستملحون الدعابة ويهشون لأهلها وأربابها..

ولعل العزاء الوحيد لأدب الفكاهة هو هؤلاء الذين عشقوا الفكاهة والمرح، وأنا واحد منهم، شُغفتُ - ولم أزل - بالأدب المظلوم، أدب الفكاهة، وتعلقت به منذ سنّ اليفوع. ومع مرور الأيام، واشتداد المحن وتراكم المسؤوليات، كنتُ أحنُّ إلى دقائق، مجرد دقائق من اللهو البريء، والمزاح اللطيف الذي يُذهب عن النفس همومها وآامها، ويعيد إلى الذهن صفاءه واتقاده بعد طول اشتغال وانشغال.

فرحت أروي ظمئي، وأرضي نفسي التوّاقة إلى الفكاهة بالرجوع إلى خزانة الأدب، باحثاً، منقباً، علّني أعرّ على ضالتي ومبتغاي.

وهناك، في ركن مهمل في خزانة الأدب، قابلت أدب الفكاهة.

أخذت بيده، ونفضت عنه غبار الزمن والنسيان والإهمال، فإذا أنا أمام لون من ألوان الأدب يجمع في داخله كلّ أركان الصنعة الأدبية

المتقنة، من حلاوة العبارة، ورشاقة الأسلوب، وظرف المعاني، وقوة السبك. ويتخذ لنفسه قوالب أدبية عديدة: الشعر تارةً، النثر المسجوع والنثر المرسل تارةً، والأقصوصة أحياناً.

قررت أن أصادق أدب الفكاهة، ورحت امتبل لحظات الفراغ لأفرّ من زحمة العمل إلى عالم الظرف والدعابة، عالم أدب الفكاهة.

عشت لحظات شيقة ممتعة وأنا أجول في أجواء الفكاهة والدعابة والمرح، وصاحبنا أدب الفكاهة لا يبخل عليّ بنوادره، ولا يرضنّ بمُلحه وطرائفه. أدخلني صديقي أدب الفكاهة إلى كتاب «البخلاء» للجاحظ، وعجبت من حال هؤلاء القوم وشحّهم الغريب المضحك.

ونقلني إلى عالم الطفيليين والأكولين في كتاب «التطفيل وحكايات الطفيليين» للبغدادي، وطربت لنواديرهم وحيلهم.

وتابعت بشغف سهام السخرية اللاذعة وهي تتطاير هنا وهناك في ديوان ابن الرومي، وكتاب «الترييع والتدوير» للجاحظ.

وضحكت من الأعماق وأنا أرقب حماقات المغفلين والثوّكي في كتاب «أخبار الحمقي والمغفلين» لابن الجوزي.

وجلت في سياحة ممتعة في عالم الظرف والدعابة في كتاب «جمع الجواهر في المُلح والنوادر» للحصري، و«أخبار الظرف والمتماجنين» لابن الجوزي، ثم توقفت في أسفاري عند محطات الفكاهة في كتب المتخبات الأدبية: الأغاني، والعقد الفريد، والمستطرف في كل فن مستطرف، ونثر الدر، و... و... وعندما توطّدت الصداقة بيني وبين أدب الفكاهة قرّر صديقي أن يعرفني على أبنائه وأهله: ظرفاء العرب، ووجوه الفكاهة.

كان بعضهم شعراء مجيدين، وبعضهم فقهاء ورعين، وآخرون من عامة الناس، بسطاء وسذج تارةً، وأذكياء وخبثاء تارةً أخرى.

أحببتهم جميعاً، وصادقتهم جميعاً، فهم قوم ظرفاء يستطيب المرء معاشرتهم، ويطرب لحديثهم، ويكره مفارقتهم.

ثم ماذا؟؟ قررت أن أعرف الناس على أصدقائي الظرفاء، فأمسكت قلمي، وسطّرت هذه السطور واصفاً، ناقلاً، متحدثاً، فكان هذا الكتاب الذي يتحدث عن أشخاص عاشوا في أماكن متباعدة، وأزمان مختلفة، ولكن جمعهم شيء واحد هو: الظرف وحبّ الدعابة. وقد رأيت أن اصدر هذا الكتاب بالحديث عن المزاح في حياة الرسول ﷺ كتمهيد فقهي بين يدي الموضوع يُسكت العابسين، ويُلجم المتجهمين الذين قد يعيبون علينا حبنا للفكاهة وعشقنا للدعابة والمرح، فهذا رسولنا وقدوتنا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يضحك ويمزح، ويداعب أصحابه ويتقبل دعاباتهم ومزاحهم. فهل بعد فعل رسول الله قول؟

وفي الختام رأيت أن أضمّ إلى هذا الكتاب ملحقاتاً يبحث في مصادر أدب الفكاهة في تراثنا العربي، أردته أن يكون معيناً لعشاق الفكاهة، يرشدهم إلى مواطنها ومظانها في تراثنا العربي لمن شاء أن يستزيد، فيقيني أن قارئ هذا الكتاب سيغدو مثلي: عاشقاً لأدب الفكاهة.

إياد فرعون

# المُزاح في حياة الرسول ﷺ

## مدخل فقهي

لم يترك المصنفون والباحثون قديماً أو حديثاً جانباً من جوانب سيرة الهادي ﷺ إلا وكتبوا عنه وبحثوا فيه، فقد كُتب الكثير عن مولده ﷺ ونسبه، ودلائل نبوته، وسيرته، وأفعاله، وأخلاقه، ومناقبه، وشمائله، وأحكامه، وأقضيته، وتفسيره، وجوامع كلمه، ومعجزاته، وما مُدح به، وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

ورغم ثراء مكتبة السيرة وغناها بالمؤلفات والدراسات التي غطت أدق تفاصيل حياته ﷺ فإنَّ هناك جانباً أحسب أنه لم يأخذ حقه من الدراسة والبحث، وأعني به المزاح في حياة الرسول ﷺ. فلطالما تساءلت: هل كان الرسول ﷺ يمزح مع أصحابه؟ وهل كان يتقبل مزاحهم ودعابتهم؟ وكيف كان هديه في ذلك اللون من ألوان السلوك الاجتماعي؟

## الرسول ﷺ والمزاح:

لم يكن الضحك والمزاح من الأمور المستهجنة أو المذمومة عند العرب، بل كانوا - على العكس من ذلك - من أكثر الشعوب شغفاً

(١) راجع: معجم ما أُلّف عن رسول الله ﷺ للدكتور صلاح الدين المنجد لتتف على ثراء مكتبة السيرة النبوية وتنوع مواضيعها.



بالضحك والفكاهة، وقد انعكس هذا الشغف على لغتهم وآدابهم، إذ كانت العرب - كما يقول ابن إسحاق:

«إذا مدحت رجلاً قالت: هو ضحوك السنّ، بَسَامَ العَشِيَّاتِ، هَشْرٌ إلى الضيف. وإذا ذمته قالت: هو عيوس الوجنة، جهم المُحِيَّا، كربه المنظر<sup>(١)</sup>».

ومن الأسماء التي شاعت بين العرب محرزة المكانة المميزة للضحك نذكر: بَسَامَ، وضحَّك، وبِشْر، وبشِير، وفرحات.

فإذا كان للضحك هذه المنزلة عند عامة العرب فكيف بمن كان معلماً للبشرية وأسوّة حسنة في السلوك وقدوةً صالحة في الخلق؟

تعقبت هذا الموضوع في كتب السيرة، واسترعى انتباهي عناية أصحاب السيرة بمزاح الرسول ﷺ حيث أفرد بعضهم أبواباً خاصة لمزاحه ﷺ كما صنع ابن الجوزي في كتابه «الوفا بأحوال المصطفى» والقسطلاني في كتابه «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» والحلي في السيرة الحلبية.

كما لا يخلو كتاب من كتب الأدب من الإشارة إلى بشر الرسول ﷺ ومزاحه، نذكر من هذه الكتب: نثر الدر للآبي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، والمستطرف في كل فن مستطرف للأبشيهي.

كما درج مصنفو كتب أدب الفكاهة على تصدير كتبهم بالحديث عن مزاحه ﷺ كما صنع ابن الجوزي في كتابه «أخبار الظُرَافِ والمتماجنين»، والحصري في كتابه «جمع الجواهر في الملح والنوادر».

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه: ٣٨١/٦.

ولعلَّ أوَّل من كتب في هذا الموضوع بشيء من التوسع والتفصيل هو محمد الغزي (المتوفى سنة ٩٨٤هـ) حيث ألف كتاباً طريفاً جمع فيه كلَّ ما أثر عن رسول الله ﷺ من إباحة المُزاح والترخيص فيه، وما رُوي في مزاحه ﷺ مع أصحابه، كما تعرَّض في كتابه هذا الذي عنوانه: «المُزاح في المُزاح» لمزاح بعض الصحابة الذين اشتهروا بالظرف والدعابة، وتعتَّب أخبار التابعين والعلماء والفقهاء الذين عُرفوا بالمرح وحبِّ الفكاهة<sup>(١)</sup> وتجمع كلُّ تلك الكتب والمؤلفات على حبه ﷺ للمزاح، وتقبله للدعابة، إذ إنَّ الصورة التي نستخلصها من مجمل تلك الكتابات هي صورة النبي دائم البشر، ضحك السن، الذي «يمزح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويؤنسهم ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ومع ذلك سرُّه في الملكوت يجول حيث أراد الله به<sup>(٢)</sup>».

وقد وصفه أصحابه بحبِّ المزاح، فهذا عبد الله بن الحارث يصفه بقوله: «ما رأيت رجلاً أكثر مزاحاً من رسول الله ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

(١) ذكر الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه «معجم ما أُلِف عن رسول الله» أسماء ثلاثة كتب أخرى - غير المُزاح في المُزاح - تبحث في مزاح الرسول ﷺ وهي:

- بيان صفة مزاح النبي ﷺ لعلي بن سلطان القاري.
- شفاء السقام في نوادره عليه الصلاة والسلام لشعبان بن محمد الآثاري.
- مزاح النبي ﷺ للزبير بن بكار.

لكن هذه الكتب - شأن كثير من الكتب والمصنفات التراثية - لم تصل إلينا. راجع ص ٢١٤ من الكتاب المذكور آنفاً.

(٢) القسطلاني: المواهب اللدنية: ٣٥٢/٢.

(٣) ذكره ابن الجوزي في الوفا بأحوال المصطفى ٤٤٥/٢، وقد رواه الترمذي من حديث عبد الله بن الحارث بلفظ: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ» وقال حسن غريب، وله شاهد عند أحمد عن أبي الدرداء قال: كان رسول الله ﷺ لا يحدث =

وعن أنس (رض) قال: كان النبي ﷺ من أفكه الناس<sup>(١)</sup>.  
 وعن ابن عباس (رض) قال: كانت في النبي ﷺ دعابة<sup>(٢)</sup>.  
 وقد أثر عنه ﷺ قوله: «رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا كَلَّتْ عَمِيَتْ»<sup>(٣)</sup>.

فالدعوة إلى الضحك والمزاح إذن ليست دعوة إلى أمرٍ مستنكرٍ أو مذموم كما قد يعتقد البعض، فهذا رسولنا وقدوتنا ﷺ لم يعرف العبوس والتجهم طريقاً إلى وجهه الشريف، بل كان دائم البشر، ضحوك السن، يمازح أصحابه ويداعبهم، يتفكّه حيناً ويطرب للفكاهة حيناً آخر، وفي ذلك حكمة بالغة تنبه إليها الزرقاني عندما قال: «فلو ترك ﷺ الطلاقة والبشاشة ولزم العبوس لأخذ الناس أنفسهم بذلك، على ما في مخالفة الغريزة من المشقة والعناء، فمزح ﷺ ليمزحوا»<sup>(٤)</sup>.

ومن هنا فقد ذهب أغلب الفقهاء إلى استحباب المزاح طالما روعيت فيه آدابه وشروطه الشرعية، وقد سئل سفيان الثوري: المزاح هجنة؟ فقال: بل سنة لقوله ﷺ: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً»<sup>(٥)</sup>.

أما ما ورد عن رسول الله ﷺ في ذمّ المزاح والنهي عن المداعبة فقد

=بحديث إلا تبسم.

(١) قال العراقي: رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس، ووُجد في بعض نسخ مسند البزار زيادة «مع نسائه».

(٢) الوفا بأحوال المصطفى: ٤٤٩/٢.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الكبير بلفظ: ساعة وساعة وقال: رواه الديلمي عن أنس.

(٤) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: ٢٧٣/٤.

(٥) رواه الطبراني عن ابن عمر باسناد حسن، وفي رواية عن أبي هريرة أنه قال: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: «نعم، وإني لا أقول إلا حقاً» رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني في «تخريج المشكاة» رقم (٤٨٨٥).

حملة الفقهاء على الإفراط والمبالغة حتى في ساعات الجد، أو على المزاح المبني على الكذب واختلاق الأمور، أو المزاح الخبيث والدعابة السمجة التي تجرح النفس، وتخدش الحياء، وتورث البغضاء والقطيعة بين البشر، فكل ذلك منهيٌّ عنه بلا شك<sup>(١)</sup>، أما المزاح الذي نعنيه في

(١) من أقوال العلماء في هذا الباب:

قول الإمام النووي: المزاح المنهي عنه هو الذي فيه إفراط ويداول عليه، فإنه يورث الضحك وقسوة القلب، ويشغل عن ذكر الله تعالى والفكر في مهمات الدين، ويؤول في كثير من الأوقات إلى الإيذاء، ويورث الأحقاد، ويستقط المهابة والوقار. فأما ما سلم من هذه الأمور فهو المباح الذي كان رسول الله ﷺ يفعل، فإنه ﷺ إنما كان يفعله في نادر من الأحوال لمصلحة وتطبيب نفس المخاطب ومؤانسته، وهذا لا مانع منه قطعاً، بل هو سنة مستحبة إذا كان بهذه الصفة.

الأذكار - تحقيق بشير محمد عيون - دمشق: دار البيان - ص ٤٠٦.

- ويقول القسطلاني: وما ورد عنه ﷺ في النهي عن المداعبة محمول على الإفراط، لما فيه من الشغل عن ذكر الله والتفكير في مهمات الدين، وغير ذلك، والذي يسلم من ذلك هو المباح، فإن صادف مصلحة (مثل تطبيب نفس المخاطب) كما كان هو فعله ﷺ فهو مستحب.

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ص ٣٥٢، ت: صالح الشامي، دمشق: المكتب الإسلامي - ط: ١٩٩١.

- ويقول الغزالي: واعلم أن المنهي عنه (من المزاح) الإفراط فيه أو المداومة عليه... فإن قدرت على ما قدر عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً، ولا تؤذي قلباً، ولا تفرط فيه، وتقتصر عليه أحياناً على الدور فلا حرج عليك فيه.

إحياء علوم الدين ٣٠/١٢٧، بيروت: دار المعرفة.

- ويقول ابن الجوزي: وما زال العلماء والأفاضل يعجبهم المِلاح ويهشون لها، لأنها تجمُّ النفس، وتريح القلب في كد الفكر.

أخبار الحمقى والمغفلين ص ٢١، تحقيق محمد شريف سكر، بيروت: دار إحياء العلوم، ط: ١٩٨٨.

وقد أثر عن عدد من كبار السلف أقوالٌ تنصف المزاح البريء والدعابة اللطيفة، ومن =

هذا المقام فهو ذاك اللطيف البريء الذي لا يجرح ولا يؤذي، ولا يتخذ الكذب مطيئةً ووسيلةً، مزاحٌ ينهل من هدي رسول الله ﷺ القائل: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً»<sup>(١)</sup> والقائل أيضاً: «إنَّ الله لا يؤاخذ المزاح الصادق في مُزاحه»<sup>(٢)</sup>.

ولهذا نجد أنَّ المزاح المروي عنه ﷺ كله من نوع الكناية أو التورية.

ومن ذلك أنَّ امرأةً من الأنصار أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادعُ الله أن يُدخلني الجنة، فقال لها: «أما علمت أنَّ الجنة لا يدخلها العجائز؟» فبكت، وفي رواية فصرخت، فتبسم الرسول ﷺ وقال لها: «لست يومئذٍ بعجوز، أما قرأت قوله تعالى: «إنا أنشأناهنَّ إنشاءً، فجعلناهنَّ أبكاراً، عُرباً أتراباً»<sup>(٣)</sup> وعن أنس (رض) أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ

---

= ذلك قول ابن عباس (رض): «المزاح بما يحسن مباح».

الآداب الشرعية والمنح المرعية: المقدسي، ٢/٢٣٤.

وقول علي بن أبي طالب (رض): «لا بأس بالفكاهة يخرج بها الرجل عن حد العبوس».

نثر الدر للآبي: ١٣٤/٢.

وقول العباس (رض): «مزح رسول الله ﷺ فصار المزح سنة».

اللطائف والظرائف: أبو منصور الثعالبي، بيروت: دار المناهل، ط: ١٩٩٢، ص ١٥١.

هذا وللدكتور يوسف القرضاوي فتوى هامة في هذا الموضوع يحسن الرجوع إليها في كتابه «فتاوى معاصرة» ٢/٤٤٥-القاهرة: دار الوفاء - ط: ١٩٩٣.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن الجوزي في الوفا من حديث عائشة: ٤٤٩/٢.

(٣) الواقعة: ٣٥-٣٧، والحديث أخرجه الترمذي في الشمائل مرسلًا، وأسنده ابن الجوزي في الوفا من حديث أنس بسند ضعيف، وقد حسنه الألباني في «غاية المرام» برقم (٣٧٥).

فقال: يا رسول الله احملني، فقال له النبي ﷺ «إني حاملك على ولد الناقة» فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ إنّه لا يحملني. فقال الرسول ﷺ: «وهل تلد الأبل إلا النوق!؟»<sup>(١)</sup>.

## دعابة الرسول ﷺ:

عن أنس (رض) قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يُقال له أبو عمير، وكان له نُعْرٌ يلعب به، فمات، فدخل النبي ﷺ ذات يوم فرآه حزينا، فقال «ما شأنه؟» قالوا: مات نُعْرُه، فقال: «يا أبا عمير ما فعل النُّعير؟»<sup>(٢)</sup>.

وعن أنس (رض) أنّ رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً كان يهدي للنبي ﷺ الهدية من البادية، فيجهّزه الرسول ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: «إنّ زاهراً باديتنا ونحن حاضروه».

وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً، فمشى ﷺ يوماً إلى السوق فوجده قائماً يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال الرجل: أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألوا ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: «من يشتري العبد؟» فقال: يا رسول الله إذن والله تجدني كاسداً. فقال النبي ﷺ: «لكن عند الله لست بكاسد، أو قال: لكن عند الله أنت غالٍ»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه أيضاً البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود وأحمد.

(٢) متفق عليه، والنُّعير: تصغير (نُعْر) وهو فرخ العصفور.

(٣) رواه الترمذي وأحمد وابن حبان.

- وعن عائشة (رض) قالت: خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم بعد ولم أبده، فقال للناس: «تقدموا» فتقدموا، ثم قال: «تعالِ حتى أسابقك» فسابقته فسبقته، فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدموا» فتقدموا، فقال لي: «تعالِ حتى أسابقك». فسابقته فسبقني، فجعل يضحك ويقول: «هذه بتلك»<sup>(١)</sup>.

وعن خوات بن جبير قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ مرَّ الظهران<sup>(٢)</sup> فخرجت من خبائي، فإذا نسوة يتحدثن، فأعجبني، فرجعت فأخرجت حلة لي فلبستها، ثم جلست مَعَهَنَّ، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «أبا عبد الله ما يجلسك إلهن؟» فلما رأيت رسول الله هبته واختلطت، فقلت: يا رسول الله جمل لي شرد وأنا ابتغي له قيدا. قال: فمضى رسول الله ﷺ وتبعته، فألقى إلي رداءه ودخل الأراك فمضى حاجته وتوضأ، ثم جاء فقال: «أبا عبد الله ما فعل شيرادُ جملك؟».

ثم ارتحلنا، فجعل لا يلحقني في منزل إلا قال لي: «السلام عليك يا أبا عبد الله، ما فعل شيرادُ جملك؟».

فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة واجتنبت المسجد ومجالسة رسول الله ﷺ فلما طال ذلك تحيَّنت ساعة خلوة المسجد فخرجت إلى المسجد وقمت أصلي، فخرج رسول الله ﷺ من بعض حُجره، فجاء فصلَّى ركعتين خفيفتين، وطوَّلت رجاء أن يذهب عني، فقال: «طوَّل أبا عبد الله ما شئت أن تطوَّل، فلست قائماً حتى تنصرف» فقلت في نفسي:

(١) رواه النسائي وابن حجة.

(٢) اسم موضع قرب مكة.

والله لا اعتذرني إلى رسول الله ولأُبْرئتَ صدره. فلما انصرفت قال: «السلام عليك أبا عبد الله، ما فعل شِرادُ جملك؟» فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت. فقال: «رحمك الله» ثلاثاً، ثم لم يعد لشيء مما كان<sup>(١)</sup>.

---

(١) قال العراقي: رواه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات.



## نعيمان الأنصاري... الصحابي الظريف

هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟

سؤال دار بخلد أحد الحائرين قديماً، ربما كان ذاك السائل عابساً متجهماً يكره الضحك، فحاول أن يلتمس لعبوسه العذر في حياة الصحابة وسيرتهم. أو لعله كان من المولعين بالفكاهة والمزاح، لكنه يستشعر في نفسه الحرج من الوقوع فيما نفر منه رجال خير القرون.

حمل ذلك الحائر سؤاله إلى العالم الذي يثق بعلمه وتقواه، إلى التخعي، فما كان من هذا الأخير إلا أن ابتسم وأجاب بحزم مبدداً الأوهام التي عَشَّشَتْ في أذهان البعض حول الضحك والفكاهة، مبيناً المكان الصحيح للمزاح والمرح في نفس المسلم وسلوكه: «نعم، كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي<sup>(١)</sup>».

لم يكن الضحك أمراً غريباً أو مستهجنأ في حياة صحابة رسول الله ﷺ، بل كانوا يضحكون ويتفكهون، وربما مازح بعضهم البعض بشيء من الدعابة اللطيفة، ولكن كان للمزاح وقته ومناسبته، فلم يسمحوا للفكاهة والدعابة بأن تطفئ على حياتهم وتشغلهم عن فرائض الدين ومسؤوليات الدعوة، وما أصدق بكر بن عبد الله المزني عندما وصف الصحابة بقوله:

(١) المزاح في المزاح: بدر الدين محمد الغزي، ص ٢٤.

« كان أصحاب رسول الله ﷺ يتباحون (أي يتراشقون) بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال<sup>(١)</sup> ».

فكيف ينفر الصحابة من المزاح والرسول ﷺ بين ظهرانيهم يوصيهم قائلاً: «رَوَّحُوا القلوب ساعةً بعد ساعة، فإنَّ القلوب إذا كَلَّتْ عميت<sup>(٢)</sup>».

ويعرّفهم بعض شمائله الكريمة بقوله: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً<sup>(٣)</sup>».

ثم يعلمهم الحدود الشرعية للمزاح بقوله: «إنَّ الله لا يؤاخذ المزاح الصادق في مزاحه<sup>(٤)</sup>». ولذلك لم نعجب عندما وجدنا كتب الأدب تروي لنا نوادر أبطالها فضلاء الصحابة من أمثال: عبد الله بن حذافة، وعلي بن أبي طالب، وصهيب الرومي. وإذا كان هؤلاء الصحابة الأجلاء قد اشتهروا في ميادين أخرى بعيدة كل البعد عن المزاح والفكاهة، فإنَّ هناك صحابياً برز اسمه مع أعلام الفكاهة ومشاهير الظرفاء، فكان بحقٍ من أبرز وجوه الفكاهة في عصر الصحابة.

ذاك الصحابي هو نعيمان الأنصاري الذي تسابق الرواة والمصنفون في جمع نوادره وتتبع أخباره.

فمن هو هذا الصحابي؟ وما هي حكايته مع المزاح والكفاهة؟

## نُعيْمانُ الأنصاري:

هو أبو عمرو، نعيمان بن عمرو بن رفاعة الأنصاري، أحد قدماء

(١) الأدب المفرد للبخاري: ٨٩.

(٢)(٣)(٤) تقدم تخريج الأحاديث المذكورة.

الصحابة وكبرائهم كما وصفه ابن عبد البر<sup>(١)</sup>، وكان شاهداً على أبرز أحداث الدعوة الإسلامية، إذ شهد العقبة وبدراً والمشاهد بعدها.

ويروي ابن الأثير وابن حجر أن نعيمان هذا كان يشرب الخمر، فكان يؤتى به إلى النبي ﷺ فيضربه بفعله، ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ويحشون عليه التراب. فلما كثر ذلك منه قال له رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: لعنك الله، ما أكثر ما يؤتى بك!! . فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، فإنه يحبُّ الله ورسوله<sup>(٢)</sup>».

كان نعيمان رجلاً مزاحاً وصاحب دعابة ظريفة، أضحك رسول الله ﷺ وأمتعته بنوادره، حتى كان الرسول ﷺ يضحك بمجرد النظر إليه كما ذكر صاحب السيرة الحلبية<sup>(٣)</sup>.

والحق أن من يقرأ أخبار نعيمان ونوادره الطريفة سيلمس بلا شك تلك الروح الفكاهة التي تميز بها نعيمان وشغلت جانباً من حياته فاستحق أن يكون أحد أبرز أعلام الفكاهة في الأدب العربي.

ونوادر نعيمان محفوظة في عدد كبير من الكتب تأتي في مقدمتها كتب تراجم الصحابة: كالاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، إذ تجد نوادر نعيمان في تلك الكتب برواية الزبير ابن بكار صاحب كتاب الفكاهة والمزاح<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ١٥٢٦/٤.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٣٣٢/٥. و: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة: ٣٦٦/٦.

(٣) السيرة الحلبية: علي بن برهان الدين الحلبي: ٤٢٥/٣.

(٤) الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي (١٧٢-٢٥٦هـ) من أحفاد الزبير =

كما اعتنت بعض كتب الأدب بجمع أخباره ونوادره نذكر منها: نشر الدر للآبي، والمستطرف للأبشيبي، وجمع الجواهر للحصري، والمُراح في المزاح لمحمد الغزي، وعيون الأخبار لابن قتيبة.

والآن لنفتح بعض هذه الكتب ولنرَ ماذا في جعبة الرواة من نوادر هذا الصحابي الظريف.

### دعابة نعيمان:

- يُروى أنَّ أبا بكر خرج تاجراً إلى البصرى ومعه نعيمان بن عمرو الأنصاري، وسُوَيْبِط بن حَزْمَلَة، وكلاهما بدري، وكان سُويْط على زاد أبي بكر، فجاءه نعيمان وقال له: اطعمني. فقال: لا، حتى يأتي أبو بكر. فقال له نعيمان: لأغيظنك.

فمروا بقوم، فقال لهم نعيمان: تشترون مني عبداً لي؟ قالوا: نعم. فقال: إنه عبدٌ له كلام، وسيقول لكم لست بعدد، وإنما أنا رجلٌ حر، فإذا كنتم ستصدقونه فلا تشتروه ولا تفسدوا عليَّ عبدي. قالوا: بل نشتره ولا ننظر في قوله. فاشتروه منه بعشر قلائص<sup>(١)</sup>، فأقبل يسوقها، وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال: دونكم هو هذا فخذوه. فجاء القوم وقالوا لسويط: قد اشتريناك. فقال: هو كاذب، أنا رجلٌ حر. فقالوا: قد أخبرنا بخبرك. فطرحوا الحبل في عنقه وذهبوا به ولم يسمعوا كلامه. فجاء أبو بكر (رض) فأخبروه خبره، فذهب هو وأصحابه وتبعوا القوم وأخبروهم أنَّ

---

= ابن العوام. راوية وعالم بالأنساب وأخبار العرب، وُلد في المدينة وولي قضاء مكة وتوفي فيها.

(انظر: الأعلام للزركلي ٤٢/٣).

(١) القلائص: جمع قُلُوص، وهي الفتيَّة من الابل.

نعيمان كان يمزح، وردّوا عليهم قلائصهم واستردوا سويطاً منهم.  
ثم قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر، فضحك من ذلك حولاً  
كاملاً.

- مرّ نعيمان بمخرّمة بن نوفل وقد كُفّ بصره وهو يقول: ألا رجل  
يقودني حتى أبول؟ فأخذ نعيمان بيده، فلما بلغ مؤخر المسجد قال له:  
ها هنا. فبال. فصاح الناس به، فقال: من قادني؟ قيل: نعيمان. قال: لله  
عليّ أن أضربه بعصاي هذه. فبلغ ذلك نعيمان، فأتاه وقال له: هل لك  
في نعيمان؟ قال: نعم. قال: قم. فقام معه، فأتى به إلى عثمان بن عفان  
(رض) - وهو إذ ذاك أمير المؤمنين - وكان قائماً يصلي، فقال: هذا  
نعيمان. فجمع محرمة يديه في العصا ثم هوى بها على رأس عثمان،  
فصاح الناس: ويلك! أمير المؤمنين!! فقال: من قادني؟ قالوا: نعيمان،  
قال: والله لا تعرضت له بسوء بعدها.

### مزاح نعيمان مع الرسول ﷺ

لم يكتفِ نعيمان بممازحة كبار الصحابة، بل لقد امتد مزاحه إلى  
رسول الله ﷺ فما ضاق به، ولا عبس في وجهه، بل كان يكتفي بابتسامة  
رقيقة، وما يزيد على أن يقول: «إحدى هنّات نعيمان».

ومما يُروى من مزاحه مع رسول الله ﷺ أنه (أي نعيمان) أهدى النبي  
ﷺ جرة عسل اشتراها من أعرابي، وجاء بالأعرابي إلى بيت النبي ﷺ  
فقال له: خذ الثمن من ها هنا. فلما قسمها النبي ﷺ نادى الأعرابي: ألا  
أعطني ثمن عسلي. فقال الرسول ﷺ: «إحدى هنّات نعيمان»، ثم سأله:  
لم فعلت هذا؟ فقال: أردت برك يا رسول الله ولم يكن معي شيء.

فتبسم النبي ﷺ وأعطى الأعرابي الثمن.

- جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائها، فقال بعض الصحابة لنعيمان: لو نحرتها فأكلناها فإننا قد قرمنا إلى اللحم، ويغرم رسول الله ﷺ ثمنها. فنحرتها نعيمان، فخرج الأعرابي فرأى راحلته، فصاح: واعقراه! فخرج النبي ﷺ فقال: من فعل هذا؟ قالوا: نعيمان. فأتبعه يسأل عنه، فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد، فأشار إليه رجل وقال بصوت عالٍ: ما رأيته يا رسول الله - وهو يشير بإصبعه حيث نعيمان - فاخرجه رسول الله ﷺ وقد تعفّر وجهه بالتراب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال نعيمان: الذين دلوّك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني. فجعل الرسول ﷺ يمسح التراب عن وجهه ويضحك، ثم غرم رسول الله ﷺ ثمن الناقة.

- وكان إذا دخل المدينة طُرُفة اشتراها نعيمان في ذمته، ثم جاء بها إلى النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله هذه هدية. فإذا جاء صاحبها يطلب ثمنها جاء به إلى رسول الله ﷺ وقال له: اعطِ هذا ثمن ما جئت به إليك. فيقول رسول الله ﷺ: أو لم تهدي ذلك لي؟ فيقول: يا رسول الله لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن يكون لك. فيضحك رسول الله ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه.

## الأعمش ... الفقيه الظريف

يعتقد كثيرٌ من الناس أنَّ الفقيه رجلٌ عابس الوجه، جهم المُحيًا، كئيب الملامح، يحمله زهده في الدنيا وانشغاله بأمور الآخرة على مجانبة المزاح والدعابة، وتكَلَّف الحزن والكآبة.

ولا يرى أكثر الناس ضيراً في رسم هذه الصورة الكريهة للفقيه متذرعين بأنَّ المزاح هزلٌ يذهب بهيبة الفقيه، ويحطُّ من قدره ومكانته، فهل هذه الصورة صحيحة؟

إننا نظلم فقهاءنا عندما نصنع لهم ذلك القناع العابس المتجهم، ونظلم رسولنا عندما نسب إليه جديةً مفرطَةً لا تعرف الترويح أو المرح، ونظلم ديننا عندما نصوّره عدوّاً لدوداً للضحك والدعابة البريئة، فالضحك غريزةٌ فطريةٌ لا سبيل إلى مقاومتها، واستجابة طبيعية يتعذر بل يستحيل كبتها.

والفقيه إنسان - كغيره من البشر - يطرب للدعابة ويضحك من الفكاهة، بل ومن الفقهاء من يكون له حظٌّ من الظرف والدعابة بما لا يחדش قدره أو يذهب بوقاره، وحسبنا في الدفاع عن الفقهاء أن نفتح خزانة التاريخ ونستخرج منها شخصيةً ظريفةً اشتهر صاحبها بالعلم والفقه إلى جانب شهرته بالظرف والدعابة.

إنه أبو محمد سليمان بن مهران الملقب بالأعمش<sup>(١)</sup>، الفقيه الظريف.

(١) العَمَش: هو ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأحيان، فهو (أَعْمَش) وهي (عَمَشَاء).

## الأعمش الفقيه:

قال علي بن المديني: «حفظ العلم على أمة محمد ﷺ ستة: فلاهل مكة عمرو بن دينار، ولأهل المدينة محمد بن مسلم، ولأهل الكوفة أبو إسحاق السبيعي، وسليمان بن مهران الأعمش، ولأهل البصرة يحيى بن كثير، وقتادة<sup>(١)</sup>».

هكذا بيّن علي بن المديني منزلة الأعمش ومكانته بين العلماء، ولا عجب، فهو محدث أهل الكوفة في زمانه (٦١-١٤٨هـ) وعالمها الكبير وإمامها الجليل، وقد وصفه الذهبي بقوله: «كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح<sup>(٢)</sup>» كما أشاد ابن عيينة بعلمه بقوله: «كان الأعمش أقرأ الناس لكتاب الله، وأحفظهم للحديث، وأعلمهم بالفرائض<sup>(٣)</sup>».

هكذا نقرأ الأعمش في كتب التراجم ومصنفات الأنساب فقيهاً، ومحدثاً، وعالمماً فاضلاً.

ولكن هل هذا هو كل شيء عن الأعمش؟

لا، فقد حفظت كتب الأدب الوجه الآخر للأعمش، أو لنقل نفسية الأعمش المرححة الفكهة المحبة للدعابة والمزاح، إذ لم يجد الأعمش - وهذه منزلته قد عرضناها آنفاً - حرجاً في أن يمازح أصحابه، ويطرب خلّانه بنوادر لطيفة، ودعابات بريئة، لا تجرح ولا تسيء إلى أحد.

ومن دراسة نوادر الأعمش يتبيّن لنا أنه كان إلى جانب علمه وفقهه رجلاً لطيف الخلق، كثير الدعابة والمرح، حلو الفكاهة والنادرة، يعتمد

(١) تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادي: ٩/٩.

(٢) الأعلام للزركلي: ٣/١٣٥.

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/١٥٢.



في مزاحه على خفة الروح، وسرعة البديهة. وأخبار الأعمش ونوادره مشورة في عدد من كتب الأدب مثل: عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي.

كما لا يخلو كتاب من كتب أدب الفكاهة من نوادر الأعمش، نذكر من تلك الكتب: جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري، وأخبار الظراف والمتماجنين للإمام ابن الجوزي، والمُراح في المزاح لمحمد الغزي.

ومن هذه الكتب نختار باقةً من النوادر التي تكشف بجلاء عن ظرف الأعمش ونفسيته المرححة الفكاهة.

### الأعمش الظريف:

- مرض الأعمش، فأبرمه الناس بالسؤال عنه، فكتب قصته في كتاب وجعله عند رأسه، فإذا سأل أحد قال: عندك القصة في الكتاب فاقرأها.

- وقال الأعمش لابنه ذات يوم: اذهب فاشتر لنا حبلاً يكون طوله ثلاثين ذراعاً. فقال: يا أبت في عرض كم؟ قال الأعمش: في عرض مصيبي فيك.

- قال رجل للأعمش: كيف بتّ البارحة؟ قال فدخل الأعمش فجاء بحصير ووسادة، ثم استلقى وقال: كذا.

- قال الأعمش ذات مرة لجليس له: تشتهي كذا وكذا من الطعام؟ (ووصف طعاماً لذيذاً) فقال الرجل: نعم. قال الأعمش: فانهض بنا. فدخل به منخله، فقدم إليه رغيفين يابسين وكامخاً، وقال: كل. فقال

الرجل: أين ما قلت؟ قال: ما قلت لك عندي وإنما قلت: تشتهي.  
- أراد إبراهيم النَّخعي أن يماشي الأعمش، فقال الأعمش: إنَّ  
الناس إذا رأونا معاً قالوا: أعور وأعمش. فقال النخعي: وما عليك أن  
نؤجر ويأثموا؟ فقال الأعمش: وما عليك أن نسلم ويسلموا؟

- مرَّ الأعمش يوماً بابن له صغير وهو عريان يلعب في الطين مع  
الصبيان، فلم يثبته، فقال لبعض من كانوا معه: انظر إلى هذا ما أقدره  
من صبي وأطفسه، ويجوز أن يكون أبوه أقدر منه. فقال له صاحبه: هذا  
ابنك محمد. ففتح الأعمش عينيه ومسحهما ونظر إليه وتأمله ثم قال:  
انظروا بحق الله عليكم كيف يتقلب في الطين كأنه شبلٌ، عين الله عليه.  
- أتت ليلة الشك من رمضان، فكثر الناس عند الأعمش يسألونه عن  
الصوم، فضجر، ثم أتى برمانة، فشقها ووضعها بين يديه، فكلما أقبل  
رجل يريد أن يسأله تناول حبةً فأكلها.

- وقع بين الأعمش وامراته وحشة، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء  
أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها وقال: يا امرأة. إنَّ أبا محمد شيخ  
كبير، فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، ودقَّة ساقيه، وضعف ركبتيه، ونتين  
إبطيه، وبخَرَ فيه، وجمود كفيه. فقال له الأعمش: قم قبحك الله فقد  
أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه.

## الأعمش والثقلاء:

كان أشدَّ ما يكرهه الأعمش الرجلَ ثقيلَ الظل، غليظَ الطبع سمج  
الأخلاق.

لا شك أن كثيراً منا يشاطر الأعمش في نفوره من مثل هذا الإنسان  
الثقيل، لكنَّ الأعمش - بظرفه - حوّل هذا النفور إلى نكتة وفكاهة لا

تخلو من طرفة، فهو القائل في الثقيل إذا حضر مجلسه :  
فما الفيءُ تحمله ميتاً بأثقل من بعض جُلاسنا  
ومما يُروى عن بغضه للثقلاء هذه النوادر:  
- قيل للأعمش يوماً: مما عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى  
الثقلاء.

- وقال: إذا كان عن يسارك ثقيل وأنت في الصلاة فتسليمة عن  
اليمين تكفيك.

- مرض الأعمش، فعاده رجلٌ وأطال الجلوس ثم قال له: يا أبا  
محمد، ما أشدَّ ما مرَّ بك في علتك هذه؟ قال: دخولك.

### الأعمش والخلفاء:

من الجوانب الهامة التي انطوت عليها نفسية الأعمش موقفه من  
الأمرء والملوك، فقد كان يزدري هذه الطبقة المتنفذة التي أمسكت بزمام  
الأمر، واستولت على مقادير السلطة.

لم يكن الأعمش من ذلك النوع من الفقهاء الذي يهاب بطش  
الحكام، فيبيع دينه بعرض من الدنيا، بل كان يواجه سطوة الحكام  
بصلابة غير هيّاب من بطشهم، ولا وجل من انتقامهم. وما يروى أنَّ  
هشام بن عبد الملك بعث إلى الأعمش أن اكتب لي مناقب عثمان  
ومساوي علي، فأخذ الأعمش القرطاس وأدخلها في فم شاة فلاكتها،  
وقال لرسول هشام بن عبد الملك: قل له هذا جوابك. فقال له الرسول:  
إنه قد آلى أن يقتلني إن لم آته بجوابك. وتحمّل عليه بأصحابه، فقالوا:  
يا أبا محمد، افتده من القتل. فلما ألحوا عليه كتب له: بسم الله الرحمن  
الرحيم، أما بعد، يا أمير المؤمنين، فلو كانت لعثمان (رض) مناقب أهل

الأرض ما نفعتك، ولو كانت لعلي (رض) مساوي أهل الأرض ما  
ضرتك فعليك بخويصة نفسك والسلام<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن موقف الأعمش المزدرى لأصحاب السلطة قد اشتهر بين  
الناس في عصره حتى وجدنا عيسى بن يونس يشيد به قائلاً: ما رأيت  
الأغنياء والسلاطين عند أحد أحقر منهم عند الأعمش مع فقره  
وحاجته<sup>(٢)</sup>.

وذات يوم شاهد أحدهم الأعمش خارجاً من قصر أحد الأمراء،  
فأساء الظن به، وراح يلومه ويعاتبه، فما كان من الأعمش إلا أن قال  
بسخرية: هم بمنزلة الكنيف، دخلت فقضيت حاجتي ثم خرجت.

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤٠٢/٢-٤٠٣.

(٢) المرجع السابق: ٤٠٠/٢.

## الشَّعبي... فقيه الكوفة الظريف

أسند الشيخ الهزيل ظهره. برفقٍ إلى أحد أعمدة مسجد الكوفة،  
تنحنح بهدوء، ثم رفع رأسه وراح يتفرَّس في وجوه الرجال الذين تحلَّقوا  
حوله وقد تعلقت أنظارهم بوجهه المنهك الذي بدت عليه آثار السنين  
وسيماء الساجدين الصالحين.

هياً البعض قراطيسه، واشرباً البعض الآخر بعنقه محاولاً الظفر  
بنظرة من خلال زحام الرؤوس، وصمت الجميع فيما عيونهم تلحُّ على  
الشيخ بالحديث.

بدأ الشيخ بإلقاء درسه، وكان حول أحكام الصوم. فقال: نُقل عن  
رسول الله ﷺ قوله: «تسحروا ولو أن يضع أحدكم إصبعه على التراب ثم  
يضعه في فيه».

صمت الشيخ برهة يلتقط أنفاسه، ثم همَّ باستئناف كلامه. فإذا  
برجل من الجالسين يسبقه بالسؤال قائلاً: أيُّ الأصابع تعني؟ نظر  
الجُلَّاس بضيق إلى هذا السائل الذي بدت على مُحيَّاه سيماء الحمق  
وملامح البلاهة، وقد همَّ بعضهم بتعنيفه على هذا السؤال البليد، لكن  
الشيخ كان أسرع منهم جميعاً، فقد ابتسم وتناول إبهام رجله وقال: هذا.

فضجَّ الجميع بالضحك، فيما أطرق السائل خجلاً. هل عرفت من

هو هذا العالم الفقيه الذي اشتهر بالظرف وحبّ الدعابة ولطف المعشر؟ إنه الشعبي فقيه الكوفة وعالمها الكبير الذي أجاد التظرف والممازحة إجادته لعلل الحديث ومبهم القرآن ودقائق الفقه، فكان بحق من الشخصيات القليلة التي أنصفت الفقهاء ودفعت عنهم تهمة العبوس والتجهم التي يأبى البعض إلا أن يلصقها ظلماً بكل فقيه وعالم.

ولكن قبل أن نلج عالم الظرف والدعابة في حياة الشعب لنقترب منه أكثر ولنتعرف عليه فقيهاً وعالماً.

### الشعبي الفقيه:

هو أبو عمرو عامر بن شراحيل، راوية من التابعين. جليل القدر، وافر العلم.

ولد وعاش ومات في الكوفة (١٩-١٠٣هـ)، دأب في شبابه على ملازمة العلماء وارتياح مجالس العلم حتى نال نصيباً عظيماً من العلم والفقه معتمداً في ذلك على «صبر كصبر الحمام، وبكور كبكور الغراب، والسير في البلاد» على حد تعبير الشعبي نفسه<sup>(١)</sup>.

وقد طار صيته في الآفاق حتى أصبح عالماً من أعلام الفقه، ومضرب المثل في العلم والحفظ، وقد قال فيه ابن عيينة: «علماء الناس ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه<sup>(٢)</sup>». وتحفل كتب الطبقات والتراجم، ومراجع الفقه والعلوم الشرعية باجتهادات الشعبي وفتاويه الفقهية وشهادات معاصريه فيه.

(١) سير أعلام النبلاء: الذهبي: ٢٢٩/١٢.

(٢) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي: ٢٢٩/١٢.

أما الرواة ومصنفو الكتب الأدبية فقد كان لهم شأن آخر مع الشعبي. إذ شغلهم ما عُرف عنه من ظرف وحب للدعابة، فراحوا يتسابقون في جمع أخباره وتتبع نوادره وتدوينها في صدر كتبهم، فإذا نحن أمام رجلٍ خفيف الظلّ، ظريف الطبع، فكه الأخلاق، استحق أن يزاحم أعلام الفكاهة الرصينة في أدبنا العربي. فمن هو الشعبي الظريف؟

## الشعبي الظريف:

«مزح الشعبي يوماً، فقيل له: يا أبا عمرو أفتمزح؟ قال: إن لم يكن هذا متناً من الغم<sup>(١)</sup>».

بهذه الكلمات المعدودة أوجز الشعبي فلسفته في الضحك والفكاهة، فالضحك ليس هزلاً يحطُّ من قدر الانسان، ولا عيباً يشين صاحبه ويذهب بوقاره، بل هو حاجة فطرية لا تستقيم الحياة دونها، وما أقسى الحياة وأضجرها إذا لم تتخللها ساعات من الضحك والفكاهة يروِّح الإنسان بها عن نفسه، ويدفع ما يطرأ عليه من همٍّ وغم. وانطلاقاً من هذا الفهم الإنساني للضحك مزَّح رسول الله ﷺ، ومزح الصحابة والتابعون والعلماء والفقهاء، بل كان منهم من نafs ظرفاء العرب فكاهةً ونادرةً كالأعمش، وابن سيرين، وفقهينا الظريف الشعبي.

ويمكننا أن نقف على أخبار الشعبي ونوادره في عدد من كتب الأدب يأتي في مقدمتها: نثر الدر للآبي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والمُراح في المُراح لمحمد الغزي، وأخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي، والبصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، وغيرها.

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس للقرطبي: ٥٦٨/٢.

وإليك بعض ما اخترناه من نوادر هذا العالم الظريف:

- بينما كان الشعبي في مسجد الكوفة إذ أقبل رجل فقال: يا شعبي، إبليس كانت له زوجة؟ قال: نعم له زوجة، فقد قال الله عز وجل «أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو<sup>(١)</sup>» ولا تكون الذرية إلا من زوجة. قال الرجل: فما كان اسمها؟ قال: ذاك نكاح ما شهدناه.

- قيل للشعبي: هل تمرض الروح؟ قال: نعم، من ظل الثقلاء. قال بعض أصحابه: فمررت به يوماً وهو بين ثقيلين فقلت له: كيف الروح؟ قال: في النزع.

- سُئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري. فقيل له: أما تستحي أن تقول لا أدري وأنت فقيه العراق؟ قال: لكن الملائكة لم تستح إذ قالت: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا<sup>(٢)</sup>».

- دخل الشعبي الحمام فرأى داود الأودي بلا مئزر، فغمض عينيه، فقال له داود: متى عُميت يا أبا عمرو؟ قال: منذ هتك الله سترك.

- كان الشعبي ضئيلاً نحيفاً، فقيل له: ما لنا نراك نحيفاً؟ قال: إني زوحت في الرحم (وكان الشعبي قد وُلد هو وأخ له في بطن واحد).

### فتاوى فكهة:

الفتياَ وظيفة هامة، ومسؤولية دقيقة تتطلب علماً وذكاءً وسعة أفق.

والأصل أن يكون المستفتي جاداً في سؤاله، حريصاً على تحري الحكم الشرعي، ولكن قد يكون المستفتي في بعض الحالات عابثاً يرمي

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) البقرة: ٣٢.



بسؤاله إحراج المفتي، أو هازلاً لا يقصد إلا المزاح والهزل، أو ربما كان خفيف العقل، محدود الفكر، فيستشكل أموراً سخيفة لا طائل من ورائها، فكيف يكون رد المفتي في مثل هذه المواقف؟

ربما يفعل بعض فقهاءنا، فيعنفون الهازل، وينهرون العابث، أو يعرضون عن الجاهل الأخرق في غيظ، لكن الشعبي لم يكن من هذا النوع، بل كان يرد على السائل بجواب لاذع مسكت أكثر هزلاً وأمضى سخريّة معتمداً في ذلك على ما طُبِعَ عليه من ظرف وذكاء وسرعة بديهة. ويعتبر الجواب المسكت باباً من أبواب الفكاهة في الأدب العربي، برع فيه عددٌ من ظرفاء العرب المعروفين من أمثال أبي العيناء، وأبي الحارث جُمَيْن، وأبي نواس، والجمّاز، بيد أن الشعبي كان من المتميزين في هذا الفن، فقد نأى بنفسه عن الأجوبة الجارحة البذيئة التي عُرف بها بعض رواد هذا الفن خصوصاً أبي العيناء، مؤسساً بذلك مذهباً خاصاً في الدعابة ينسجم ومكانته العلمية والفقهية على نحو ما نجده في هذه الفتاوى الفكهة:

- سأل رجلُ الشعبي عن المسح على اللحية في الوضوء فقال: خلّ لها بأصابعك. فقال: أخاف ألا تَبْلُها. قال الشعبي: إن خفت فانقعها من أول الليل.

- سأله آخر: هل يجوز لمحرم أن يحكَّ جسده؟ قال: نعم. قال: مقدار كم؟ قال: حتى يبدو العظم.

- سأله رجل فقال: هل أُسَلِّم على القوم وهم يأكلون؟ فقال: إن أردت أن تأكل معهم فسَلِّم.

- وسُئِلَ الشعبي عن لحم الشيطان فقال: نحن نرضى منه بالكفاف. وسأله آخر عن أكل الذُبَّان فقال: إن اشتهيته فكله.

- مرَّ بالشعبي رجلٌ فقال له: أصلحك الله، إني كنت أصلي فأدخلت إصبعي في أنفي فخرج عليه دم، أترى لي أن احتجم؟ فقال الشعبي: الحمد لله الذي نقلنا من الفقه إلى الحجامة.

وسأله رجل: ما تقول في رجل شتمني في أول يومٍ من شهر رمضان، أتراه يُؤجر؟ قال الشعبي: إن قال لك يا أحمق رجوتَ له ذلك.

## أشعب أمير الطفيليين

لاح من بعيد طيفُ رجلٍ بدين متراكب اللحم، ممتلئ الجسم، وهو يهرول بثقل شديد من وطأة اللحم المتدلي من أردافه. ما خبره؟ لقد تنهى إلى سمعه خبر وليمة دسمة حوت ما لذ وطاب، واستقرت في خيشومه رائحة الشواء والمرق والبهار، وهي أمور تثير اهتمام هذا النهم السمين، ويسيل لرؤيتها لعابه.

وكالصاعقة المرسلة من السماء اقتحم مجلس القوم دون استئذان، وما أن وقع بصره على المائدة وما حوت من لذيذ الطعام حتى تحلَّب ريقه وتلمَّظ لسانه، فوثب على الطعام مشمراً فاغراً فاه، وقد قرقرت أمعاؤه وصاحت عصافير بطنه، ولم يشعر القوم إلا بيديه الممتلئتين تهويان على الطعام فلا تبقي ولا تذر.

وما هي إلا دقائق حتى اختفى ما كان على الخوان من طعام، وتبخَّر ما كان في القدور من حساء.

حملق القوم في ذلك البدين وقد تمدد لاهثاً وكأنه خرج لتوه من معركة شرسة. كان لا يزال ممسكاً بعظمة بمصها بشراهة فيما يده الأخرى تتحسَّس بطنه المنتفخ.

رمى العظمة أرضاً ثم قال بصوتٍ واهنٍ: إنَّ في البطن لخلوة لا يملؤها إلا الحلوى!!!

لا شك أنك عرفت من هو هذا البدين النهم، ومن يكون سوى أشعب بن جبير أمير الطفيليين وزعيم الشرهين والأكولين، بل سيد الظرفاء بلا منازع.

وأشعب هذا شخصية طريفة حقاً، فهو رجل نهم بطين، مولع بأطياب الطعام وأفانين الشراب، لكنه بليد كسول ينفر من العمل، طمّاع يهوى المغنم السهل والكسب السريع ويكره أن يشبع طمعه ونهمه من كيسه وماله، ولذلك تراه يغزو الموائد، ويقترح الولائم دون دعوة ليلتهم الطعام بشراهة، ويملاً معدته حتى التخمة على حساب غيره، شعاره في الحياة:

نحن قوم متى دُعينا أجبنا      ومتى نُئسى يدُعنا التّطفيلُ  
ونَقُل: عَلْنَا دُعِينَا فَغَبْنَا      وأتانا فلم يجدنا الرَّسُولُ<sup>(١)</sup>

وفلسفته في ذلك يعبر عنها أحدهم بقوله: «والله ما بُنيت المنازل إلا لتدخل، ولا نُصبت الموائد إلا لتؤكل، وإني لأجمع فيها خلالاً: أدخل مجالساً، وأقعد مؤانساً، وانبسط وإن كان ربُّ الدار عابساً، ولا أتكلف مغرماً، ولا أنفق درهماً، ولا أتعب خادماً<sup>(٢)</sup>».

لم يكن أشعب من ذلك النفر من الناس الذي تستثقل ظله وتكره مجالسته وتبرم من تطفله على مائدتك بل هو شخص خفيف الظل، لطيف المعشر، حاضر النكته، لا يعدم الحيلة الظريفة التي توصله إلى مأربه وتُشبع طمعه ونهمه، وكذلك كثيراً ما كان أصحاب الولائم يتغاضون عن تطفل أشعب طمعاً في ظرفه ورغبةً في سماع نوادره، فإذا ما

(١) العقد الفريد: ٢١٢/٦.

(٢) المرجع السابق، نفس الموضع.

فاتهم الطعام الذي سيبتلعه حتماً ذاك الطفيلي النهم فحسبهم التفكه بنوادره وطُرفه .

وقد راج أمر أشعب في زمانه، وذاع صيته حتى أضحي رمزاً للتطفل وشعاراً للشره والنهم، فما إن يُذكر التطفل حتى يُذكر معه أشعب أمير الطفيليين وبطل النوادر والملح الظريفة .

ولكن قبل أن نمضي في نوادر أشعب وطُرفه لا بد لنا أولاً من وقفة قصيرة نتعرف من خلالها على شخصية أشعب، وأهم معالم حياته كما يرويها المؤرخون .

### من هو أشعب؟

لم يتفق الرواة على رأي واحد حول أشعب، فحياته ميدان لروايات متعارضة ينفي بعضها بعضاً، ولعل الأمر الوحيد المتفق عليه من سيرته هو اسمه: أشعب بن جبير، وما عدا ذلك مشكوك في صحته، متروك لاختلاف الرواة، فقد اختلفوا في كنيته فقيل: أبو العلاء، وقيل: أبو إسحاق، وقيل: أبو القاسم .

واختلفوا في اسم أمه، فقيل: أم حمدة، وقيل: أم الجلندح، وقيل: جعدة مولاة أسماء بنت أبي بكر .

واختلفوا في ولائه، فقيل: هو مولى عثمان بن عفان، وقيل: مولى سعيد بن العاص، وقيل: مولى عبد الله ابن الزبير، وقيل: مولى فاطمة بنت الحسين .

واختلفوا في بعض قرابته، فقيل: هو خال الواقدي، وقيل: بل هو خال الأصمعي .

وهذا ما دعا البعض إلى الظن بوجود أكثر من أشعب واحد، لكن

الراجح والمتيقن هو أن التاريخ لم يعرف سوى أشعب واحد هو أشعب ابن جبير<sup>(١)</sup>.

ومن غير المفيد أن نسترسل في سرد الروايات المتناقضة ونرهبق القارئ بخلافات المؤرخين، فحسبنا هنا أن نكتفي بالقدر المتيقن من سيرته، فهو أشعب بن جُبَيْر الملقب بالطامع، ظريف من ظرفاء المدينة، روى الحديث عن جماعة من الصحابة<sup>(٢)</sup>، ونظم الشعر وتعلّم الغناء على يد مَعْبَد المدني نابغة الغناء في العصر الأموي، فأجاده وبرع فيه.

ويُستدل من بعض الروايات على أنه وُلِدَ زمن خلافة عثمان بن عفان (رض)، ومما يقوي هذه الرواية قول أشعب عن نفسه: «أنا أشأم الناس، وُلدت يوم قُتل عثمان، وخُتنت يوم قُتل الحسين<sup>(٣)</sup>».

أما عن وفاته فتجمع مختلف المصادر على أنها كانت سنة (١٥٤هـ) أي في زمن خلافة أبي جعفر المنصور، وبذلك يكون أشعب قد عمّر دهرًا طويلًا قضاه في التطفل والتظرف والتكسب بالحيلة والمنادمة.

وتغصُّ كتب التراث بنوادر أشعب، فكل كتاب يترجم لهذا الظريف لا بد أن يذكر شيئاً من ملحه وأخباره، لكننا اخترنا معظم مادة بحثنا مما جمعه الأصفهاني في كتابه «الأغاني»، وابن عبد ربه في «العقد الفريد»، ومحمد بن شاكر في «فوات الوفيات».

والآن تعال معي ندخل عالم الشره والطمع، عالم الظرف والفكاهة، عالم أشعب.

(١) هذا ما أكده البغدادي في تاريخ بغداد: ٣٨/٧، وابن حجر في لسان الميزان: ١/٤٥٢.

(٢) انظر الأحاديث التي رواها أشعب في مختصر تاريخ دمشق: ٥/٥.

(٣) مختصر تاريخ دمشق: ٧/٥.

## أشعب الطامع:

«أطمع من أشعب» مثل عربي قديم<sup>(١)</sup> يُضرب فيمن غلا في طمعه، واشتطَّ في شرهه وجشعه حتى فاق أشعب نفسه!!!

واحسب أنَّ هذا المثل بكلماته المعدودة يختزن كلَّ ما يمكن أن يقال عن صاحبنا أشعب، ذاك الطفيلي النهم الذي فاق طمعه كل حدود التصور حتى صار علماً من أعلام الشره والنهم، ومضرب المثل في الطمع والجشع، ولعلك تحسب أن في الأمر بعض المبالغة والإسراف، إذ ربما هوّل المؤلفون من أمر أشعب، فظلموه وتجنوا عليه، حسناً، لم لا نقرب كتب الأدب ونمتحن صدق ذاك المثل؟؟

يقول الرواة عن أشعب:

بينما قوم جلوس عند رجل من المدينة يأكلون عنده حيتاناً، إذ استأذن عليهم أشعب، فقال أحدهم: إن من عادة أشعب أن يبسط يده إلى أحسن الطعام، فاجعلوا الحيتان الكبار بعيدة عنه ليأكل من صغار السمك. ففعلوا. فلما دخل أشعب قالوا له: كيف رأيتك في الحيتان؟ فقال: إن لي عليها حقداً شديداً، لأن أبي مات في البحر وأكلته الحيتان. فقالوا له: هلمَّ خذ بثأرك منها. فجلس ومدَّ يده إلى حوت صغير ثم وضعه عند أذنه وقد نظر إلى الصفحة التي فيها الحيتان الكبار في ركن المائدة وقال: أتدرون ما يقول هذا الحوت الصغير؟ قالوا: لا.

قال: إنه يقول أنه لم يحضر موت أبي ولا أدركه، لأن سنه تصغر عن ذلك، وقال لي: عليك بتلك الحيتان الكبار التي في ركن المائدة فهي التي أدركت أباك وأكلته.

(١) تجده في مجمع الأمثال للميداني: ٥٥٠/١، وجمهرة الأمثال للعسكري: ٢٥/٢.

- جلس أشعب مرة يقصُّ على أحد الأمراء قصصاً مسلية، وجاء أوان الطعام، فحضرت المائدة، وكان أشعب قد بدأ يقصر حكايته، فقال: كان أيها الأمير رجلاً...، وعندما أبصر المائدة علم أن القصة ستلبيه عن الطعام نظراً لطولها، فسكت. فقال الأمير: وماذا بعد يا أشعب؟ فقال: ومات.

- غاضبت مصعب بن الزبير زوجته عائشة بنت طلحة فاشتد ذلك عليه وشكا أمره إلى خاصته، فقال له أشعب: فما لي إذا هي كلمتك؟ قال: عشرة آلاف درهم. فأتى إليها فقال: يا ابنة عم رسول الله ﷺ تفضلي بكلام الأمير، فقد استشفع بي عندك وأجزل لي العطية إن أنت كلمته. قالت: لا سبيل إلى ذلك يا أشعب. وانتهرته. فقال: جُعِلْتُ فداك، كلميه حتى أقبض عشرة آلاف درهم، ثم ارجعي إلى ما عودك الله من سوء الخلق. فضحكت وقامت فصالحته.

- ويروى عن أشعب أنه قال له بعض إخوانه: لو صرت إليَّ العشيّة نتفرج. قال: أخاف أن يجيء ثقيل. قال: ليس معنا ثالث. فمضى معي. فلما وصلنا الظهر ودعوت بالطعام فإذا بداقٍ يدق الباب، قال: ترى إن قد صرنا إلى ما نكره. قلت له: إنه صديق وفيه عشر خصال إن كرهت واحدةً منها لم آذن له. قال: هات. قلت: أولها أنه لا يأكل ولا يشرب. قال: التسع لك، قل له أن يدخل.

- وروى أشعب عن نفسه:

أضجرني الصبيان يوماً، فأردت أن أشغلهم، فقلت لهم: إن بموضع كذا عرساً فامضوا إليه فلما مضوا ظننت أنني صدقتهم فتبعتهم.

- وقال: تبعت الضحاك بن مخلد وهو يريد منزله، فالتفت إليّ وقال: ما لك يا أشعب؟ قلت: يا أبا عاصم، رأيت قلنسوتك قد مالت



فتبعتك لعلها تسقط فأخذها. فزرعها عن رأسه وأعطانيها.

- وقد قيل لاشعب يوماً: ما بلغ من طمعك؟ فقال: ما زُفّت امرأة في المدينة إلا كنت بيتي وفتحت بابي رجاء أن تُهدى إليّ، وما رأيت اثنين يتسارّان في جنازة إلا قدّرتُ أن الميت أوصى لي بشيء.

### أشعب الظريف:

لكن حياة أشعب لم تكن كلها طمع وشره، إذ كان يروق لهذا الطامع أن يتخلّى - أحياناً - عن طمعه، ويتناسى - مؤقتاً فقط - جوعه وشرهه المفرط ليداعب من حوله بشيء من الدعابة اللطيفة، فإذا نحن أمام ظريف لا يربطه بذاك الطفيلي النهم أي رابط سوى حضور النكتة، وظرف الطباع، وسرعة البديهة. ومن الإنصاف أن نسلط الضوء على هذا الجانب من شخصية أشعب، فلا يكون حديثنا كله عن طمعه وشرهه وتطفله، بل نفسح المجال لنوادير وملح طريفة لا تفوح منها رائحة الشواء والبهار، وإليك بعض هذه النوادر:

- قال أشعب: جاءني جارية بدينار وقالت: هذا وديعة عندك. فجعلته تحت الفراش، فجاءت بعد أيام تنظر الدينار، فقلت: ارفعي الفراش وخذي ولده - وكنت تركت إلى جانبه درهماً - فتركتُ الدينار وأخذتُ الدرهم.

وعادت بعد أيام، فوجدت معه درهماً آخر، فأخذته، وعادت في الثالثة كذلك، فلما جاءت الرابعة تباكيثُ. فقالت: ما يبكيك؟ قلت: مات الدينار في النفاس. فقالت: وكيف يكون للدينار نفاس؟ فقلت: يا حمقاء تصدقين بالولادة ولا تصدقين بالنفاس!؟!!

- قال المدائني: حدثني شيخ من أهل المدينة قال: كانت بالمدينة

عجوز شديدة العين، لا تنظر إلى شيء تستحسنه إلا عانته (أي أصابته بعينها) فدخلت على أشعب وهو في الموت وهو يقول لبنته: يا بنية، إذا متّ فلا تنديبيني والناس يسمعونك فتقولين: وأبتاه أندبك للصوم والصلوات، وأبتاه أندبك للفقه والقراءة، فتكذبك الناس ويلعنونني.

والتفت أشعب فرأى المرأة فغطى وجهه بكمه وقال لها: يا فلانة، بالله إن كنت استحسنيت شيئاً مما أنا فيه فصلي على النبي ﷺ ولا تهلكيني. فغضبت المرأة وقالت: سخنت عينك، في أي شيء أنت مما يستحسن؟ أنت في آخر رمق. قال: قد علمت، ولكن قلت لئلا تكوني قد استحسنيت خفة الموت عليّ وسهولة النزع، فيشتد ما أنا فيه. فخرجت من عنده وهي تشتمه، وضحك كل من كان حوله من كلامه. ثم مات.

- غذى أشعبُ جدياً بلبن أمه حتى كبر، ثم قال لزوجته أم ابنه وردان: إني أحب أن ترضعيه بلبنك. ففعلت، ثم جاء به إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد، فقال له: تالله إنه لابني، رضع من لبن زوجتي، قد حبّوتك به، ولم أرَ أحداً أجدر به منك. فنظر إسماعيل إليه وأمر به فذبح وسُمط، فأقبل عليه أشعب وقال: المكافأة. فقال إسماعيل: ما عندي والله شيء، ونحن من تعرف، ولن تفوتك المكافأة. فلما يئس أشعب منه قام من عنده فدخل على أبيه جعفر، ثم اندفع فشهِق حتى التقت أضلاعه أضلاعه، ثم قال: أريدك في خلوة. قال: ليس معنا أحد يسمع وليس هنا أحد يرانا، فقل ما تريد. قال أشعب: وثب ابنك إسماعيل على ابني فذبحه وأنا أنظر إليه. فارتاع جعفر وصاح: ويلك!! ولماذا ذبحه؟ وماذا تريد؟

قال أشعب: أما الذي أريده فوالله ما لي في إسماعيل حيلة، ولا يسمع هذا الخبر أحد بعدك. فأعطاه مئتي دينار وقال: خذ هذه، ولك

عندنا ما تحب . وخرج جعفر إلى ابنه إسماعيل وهو لا يبصر ما يظاً عليه ، فإذا به مسترسل في مجلسه ، فلما رأى أباه متغيراً دهش وقام إليه ، فقال جعفر : يا إسماعيل فعلتها بأشعب فقتلت ولده؟! . فضحك إسماعيل وأخبر أباه بقصة الجددي الذي أرضعه أشعب بلبن امرأته ، فضحك جعفر ، وكان يقول لأشعب : رُعتني راعك الله . فيقول له أشعب : روعة ابنك بنا في الجددي أكبر من روعتك بمئتي الدينار .

ونختم حديث أشعب بهذه الحكاية التي تنتزع الضحك من الأعماق لشدة طرافتها ، وظرف عبارتها ، نقلها كما هي من كتاب الأغاني<sup>(١)</sup> :

حدّث ابن زنج راوية ابن هرمة عن أبيه قال : كان أبان ابن عثمان من أهزل الناس وأعبثهم ، وبلغ من عبثه أنه كان يجيء بالليل إلى منزل رجل في أعلى المدينة له لقب يغضب منه فيقول له : أنا فلان بن فلان . ثم يهتف بلقبه ، فيشتمه أقبح شتم وأبان يضحك ، فبينما نحن عنده ذات يوم وعنده أشعب ، إذ أقبل أعرابي ومعه جمل له ، والأعرابي أشقر ، أزرق ، أزعر ، غضوب ، يتلظى كأنه أفعى ، ويبين الشرف في وجهه ، ما يدنو منه أحد إلا شتمه ونهره ، فقال أشعب لأبان : هذا والله من البادية ، ادعوه . فدُعي وقيل له : إنّ الأمير أبان بن عثمان يدعوك . فأتاه فسلم عليه ، فسأله أبان عن نفسه فانتسب له ، فقال : حيّاك الله يا خالي ، حبيب ازداد حباً . فجلس ، فقال له : إني في طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما اشتهي بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك والأخفاف ، فالحمد لله الذي جعل ظفري به من عند من أحبه ، أتبيعه؟ فقال : نعم أيها الأمير . فقال : فاني قد بذلت لك به مئة دينار (وكان الجمل يساوي عشرة دنانير) فطمع الأعرابي وسرّ وانتفخ وبان السرور والطمع في وجهه ، فأقبل

(١) الأغاني : ١٢٠/١٩ .

أبان على أشعب ثم قال له: ويلك يا أشعب، إن خالي هذا من أهلك وأقاربك (يعني في الطمع) فأوسع له محلاً عندك. فقال له: نعم بأبي أنت وزيادة. فقال له أبان: يا خالي إنما زدتك في الثمن على بصيرة، وإنما الجمل يساوي ستين ديناراً، ولكن بذلت لك مئة لقلة النقد عندنا، وإنني أعطيك به عروضاً تساوي مئة. فزاد طمع الأعرابي، وقال: قد قبلت ذلك أيها الأمير.

فأسرَّ أبان إلى أشعب فأخرج شيئاً مغطى، فقال له: اخرج ما جئت به. فأخرج جرد عمامة خز خلق<sup>(١)</sup> تساوي أربعة دراهم، فقال له: قومها يا أشعب. فقال له: عمامة الأمير، تعرف به، ويشهد فيها الأعياد والجمع، ويلقى فيها الخلفاء، خمسون ديناراً. فقال: ضعها بين يديه. وقال لابن زبنج: أثبت قيمتها. فكتب ذلك، ووضعت العمامة بين يدي الأعرابي، فكاد يدخل بعضه في بعض غيظاً، ولم يقدر على الكلام، ثم قال: هات قلنسوتي. فأخرج قلنسوة طويلة خلقة قد علاها الوسخ والدهن، وتخرقت، تساوي نصف درهم، فقال: قوم. فقال: قلنسوة الأمير، تعلقو هامته ويصلي فيها الصلوات الخمس، ويجلس للحكم، ثلاثون ديناراً. ثم قال: أثبت. فأثبت ذلك، ووضعت القلنسوة بين يدي الأعرابي، فتربَّد وجهه وجحظت عيناه وهمَّ بالوثوب، ثم تماسك وهو متقلقل، ثم قال لأشعب: هات ما عندك. فأخرج خفين خلقين قد نقبا وتقشرا وتفتقا، فقال له: قوم فقال: خفا الأمير، يطأ بهما الروضة، ويعلو بهما منبر النبي ﷺ أربعون ديناراً. فقال: ضعهما بين يديه. فوضعهما، ثم قال للأعرابي: أضمم إليك متاعك وقال لبعض الأعوان: اذهب فخذ

(١) الجرد: الخرقة البالية، و(الخز) من الثياب: ما يُنسج من الصوف، و(الخلق) من الثياب: البالي.

الجمل . وقال لآخر : امضِ مع الأعرابي فاقبض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع وهو عشرون ديناراً . فوثب الأعرابي فأخذ القماش وضرب به وجوه القوم لا يألو في شدة الرمي به . ثم قال له : أتدري أصلحك الله من أي شيء أموت؟ قال : لا . قال : لم أدرك أباك عثمان فاشترك والله في دمه إذ ولد مثلك . ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره . وضحك أبان حتى سقط ، وضحك كل من كان معه ، وكان الأعرابي بعد ذلك إذا لقي أشعب يقول له : هلم إليّ يا بن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك المتاع يوم قُوم . فيهرب أشعب منه .

## أبو علقمة النحوي وعجائب اللغة

مما يروى عن الشيخ حمزة فتح الله أحد أعلام اللغة في مصر والذي كان يصرُّ على استخدام الفصحى المتقعرة في كلامه حتى مع العامة أنه قدم ذات يوم من رحلة تفتيشية بمدارس الريف، وعندما وصل به القطار إلى محطة القاهرة نظر حوله علَّه يجد رجلاً يحمل على حمار إلى بيته - أيام كانت الحمير هي الوسيلة الوحيدة للنقل - فرأى رجلاً يجترّ خلفه حماراً، فناداه الشيخ قائلاً: «أيها الرجل إيتني بأتان جَمَّاز». فظن الرجل أنه يتكلم لغةً أجنبية، فاقرب منه، وجعل يستطلع جلية الأمر حتى أخذ منه الجهد ولم يحظ منه بطائل، فتركه وذهب بحال سبيله، وهروا الشيخ إلى بيته وهو يلعن الجهل والجهلاء<sup>(١)</sup>.

عندما فرغت من قراءة هذه القصة نحييت الكتاب جانباً، وسرحت بذهني أتخيل ذاك القروي الجاهل وقد فتح فمه ببلاهة محملاً في الشيخ حمزة دون فهم، ولعله حسبه سائحاً أوربياً يسأله عن مكان ما.

لم أدري هل أعذره لجهله، أم لوعورة تعابير الشيخ حمزة والتي قد يجهل معناها حتى من نال حظاً من العلم والثقافة. عندنا، تذكرت كتاب «فقه اللغة وسر العربية» للإمام أبي منصور إسماعيل الثعالبي، وكنت قد قرأته منذ سنوات خلت، إذ هالني - في حينها - ما وجدته من كلمات

(١) المدخل إلى علم اللغة: د. رمضان عبد التواب، ص ١٢٦-١٢٧.

عسيرة الفهم، صعوبة النطق، معقدة التركيب؛ وأذكر أنني جلست أنا وزملاء الدراسة نتندّر بمفردات هذا الكتاب، فنركب جملاً ونصطنع حواراً قوامه تلك الألفاظ الغريبة، والكلمات المتقكرة العجيبة. ثم راح واحدنا يخاطب أصحابه بمثل هذه الجمل، ويضحك من ردادات فعلهم التي لم تختلف كثيراً عمّا بدر من ذاك القروي الساذج.

ولكن بمرور الأيام أدركت سرّ هذه الكلمات والألفاظ، وأيقنت أنها ليست حشواً لغوياً يثقل المعاجم ويرهق الطالب، بل هي خاصة من الخصائص المميزة للعربية، ومظهر ثراء لغوي يندر أن نقع على نظير له في لغات العالم الأخرى.

لكن إذا كان هذا الثراء بالألفاظ والمفردات مزية فريدة، فإنه قد ينقلب إلى بلية متعبة عندما يُساء استخدامها في غير مكانها. فتقحم إقحاماً في الجمل والحديث دون مناسبة، فقد ابتليت اللغة قديماً وحديثاً بأناس شُغفوا بالتقعر والتشدد في اللغة، وفتنوا بالتفاسح والحدلقة في الحديث، ترى واحدهم ينقّب في المعاجم، ويقلّب الكتب الصفراء المغبرة، والمجلدات العتيقة الضخمة، يستطيب مصاحبة الفراء وابن جني، وسيبويه والثعالبي، فإذا جالس أحد الأشخاص محدثاً فلا يخاطبه إلا بالفصيح المتقعر من الكلمات، والغريب المهجور من العبارات، وإذا تعامل مع العوام والدهماء فلا يكلمهم إلا بلغة امرئ القيس ومن شايعه من الشعراء، وإذا طابت له المنادمة فبنوادر الشعر ومستغلق النثر، وإذا عنت له الممازحة فبالملاحن والمعاياة، والمعمّي والمحاكاة<sup>(١)</sup>، وهو يظن أنه بذلك التفاسح المصطنع يُظهر حذقه وتبحره في اللغة وكأنه سبر أغوارها حتى أمسك بسرّها.

(١) فنون لغوية تعتمد على التلاعب بالألفاظ والمعاني.

منذ القديم كان هذا المسلك اللغوي موضع استهجان الناس وسخريتهم على إختلاف مشاربهم، فقد كره اللغويون التفاسح مع العامة، ومخاطبة الناس بما لا يفهمون، وقد نُقل عن أبي القاسم بن برهان الأسدي أحد أئمة اللغويين قوله لأصحابه: «إياكم والنحو بين العامة فإنه كاللحن بين الخاصة»<sup>(١)</sup>.

وعندما سُئل الحسن بن سهل عن البلاغة قال: «هي ما فهمته العامة ورضيته الخاصة»<sup>(٢)</sup>.

أما العامة من الناس فقد كان لهم شأن آخر مع هؤلاء المتقعرين، فهم في الأصل يستثقلون النحو ويستصعبون التحدث بلغة فصيحة، فكيف إذا خاطبهم شخص بكلمات متقاة من بطون المعاجم يعجز أرباب اللغة عن إدراك كُنْهها؟ لا شك أن هذه المفارقة العجيبة ستقلب إلى نكتة طريفة، وموقف غريب مضحك، ومن هنا كان من الطبيعي أن يتحول أمثال هؤلاء اللغويين المتقعرين إلى مادة للسخرية والتندر، وموضوعاً لطرائف ونوادر تعكس نفور الناس من التقعر وأهله، إذ لا يخلو كتاب من كتب الأدب من بعض هذه النوادر والأخبار التي تُساق دائماً في إطار ساخر وقالب تهكمي. أما الإمام ابن الجوزي فقد أوجع المتحذلقين بسياط سخريته عندما رماهم بالحمق والغفلة معتبراً أن «تكلم قوم من النحويين بالإعراب مع العوام هو من جنس التغفيل وإن كان صواباً، لأنه لا ينبغي أن يُكلم كل قوم إلا بما يفهمون»<sup>(٣)</sup>.

لا شك أن بعض نوادر اللغويين المثورة في كتب الأدب ملفقة ومن

(١) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي: ص ١٥٩.

(٢) محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني: ٥٨/١.

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين للإمام ابن الجوزي: ص ١٥٩.



نسج الخيال واختلاق المصتفين، ولكن من المؤكد أن بعضها الآخر حقيقي تناقله الرواة منسوباً إلى علم من أعلام اللغة كنفطويه، وسعيد بن عبد الملك.

ولعل أبا علقمة النحوي من أشهر اللغويين الذين نُسبت إليهم نواذر اللغة والتععر حتى اقترن اسمه بهذا الباب من أبواب الفكاهة، فما أن يُذكر أبو علقمة حتى يُذكر معه التععر والتفاسح واستعمال الحوشي من الكلمات، والغريب من الألفاظ.

### أبو علقمة النحوي النُميري:

لا نعرف الكثير عن حياة أبي علقمة، بل لا نعرف حتى اسمه، إذ يبدو أن الناس اكتفوا بكنيته حتى ضاع اسمه. والمراجع التي بين أيدينا لا تسعفنا بشيء عن تاريخ ولادته أو وفاته، ومكان نشأته، وأبرز معالم حياته، وأقصى ما يمكننا ذكره هنا هو أنه من بني نمير من واسط في العراق كما رجح ياقوت الحموي في معجم الأدباء<sup>(١)</sup>. ويضيف القفطي قائلاً: «هو قديم العهد، يعرف اللغة، كان يتقعر في كلامه ويعتمد الحوشي<sup>(٢)</sup>».

وهذه الكلمات المعدودة تكشف لنا بجلاء عن مسلك هذا الرجل في حياته وكلامه، وربما ألفت بعض الضوء على طباعه ونفسيته، وذلك إذا وافقنا من يرى أن التقعر قائم على عيب أو مرض نفسي من قبيل الغرور أو حب الظهور أو الحمق.

ومهما يكن من أمر أبي علقمة فإن في سلوكه وكلامه مع العامة

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي: ٢٠٥/١٢.

(٢) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي: ١٣٩/٢.

شذوذ ظاهر، وفي أخباره فكاهة مضحكة، وهذا ما حدا بنا على أن ندرجه مع وجوه الفكاهة في الأدب العربي.

ويمكننا أن نقف على أخبار أبي علقمة ونوادره في عدد من الكتب مثل: معجم الأدباء لياقوت الحموي، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وجمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري، وغيرها.

وكان بودي أن أشرح حوشي ألفاظ أبي علقمة وأزيل عجمتها، ولكنني خشيت أن ينقلب البحث إلى درس لغوي، ولذلك آثرت ذكرها كما هي دون شرح أو تفسير، ويمكن للقارئ أن يقف على معانيها في معاجم اللغة إن شاء وإلا فحسبه سماعها ففيه الكفاية.

## أبو علقمة والمرض:

أصيب أبو علقمة بمرض أرَّقه وحرمه طعم الراحة، فدخل على «أعين» الطبيب وراح يشكو له مرضه ويصف علته بكلمات منمقة، وعبارات مزوَّقة، وأسلوب بليغ يعجز عن الإتيان بمثله الشنفرى وابن منظور.

ولك أن تتخيل حيرة الطبيب وهو ينصت إلى سيل الكلمات الغريبة التي راحت تتهاوى على رأسه دون فهم، فماذا كان من أمره؟ لنستمع إلى أبي علقمة في حوارهِ مع أعين الطبيب:

دخل أبو علقمة على أعين الطبيب فقال له: إني أكلت من لحوم هذه الجوازل، فطسَّئت طسأة، فأصابني وجع بين الوايلة إلى دأية العنق، فلم يزل يربو وينمى حتى خالط الخلب وألمت له الشراسيف، فهل عندك

دواء؟ فقال له الطبيب: خذ حرقفاً، وسلقفاً وشبرقاً، فزهزقه وزقرقه ثم  
اهرقه ورققه<sup>(١)</sup>. واغسله بماء روث، واشربه بماء الماء. ٨

فقال أبو علقمة: أعد عليّ - ويحك - فاني لم أفهم منك. فقال له  
الطبيب: لعن الله أقلنا إفهاماً لصاحبه وهل فهمت منك شيئاً مما قلت؟

- طلب أبو علقمة حَجَّاماً لِيَحْجِمَهُ، فقال له: لا تعجل حتى أصف  
لك، ولا تكن كامريئ خالف ما أمر به وفعل غيره. أشدد قَصَب  
المحاجم، وأرهف ظُبَّة المشارط، وأسرع الوَضْع، وعجّل النزْع، وليكن  
شرطك وخزاً، ومصك نهزاً، ولا تردن أتياً، ولا تكرهن أياً.

فوضع الحجاج محاجمه في قفته وقال له: كلامك يقطع الدم. وقام  
وانصرف.

### أبو علقمة وغلامه:

كان لأبي علقمة غلام يخدمه ويرعى شؤونه، ويبدو أن عدوى التقعر  
قد أصابت هذا الغلام من طول ملازمته لأبي علقمة، أو لعله وجد  
التحدلق الوسيلة الوحيدة للتفاهم مع مخدمه، فكانت له مع أبي علقمة  
نوادير طريفة، ومن ذلك أن أبا علقمة قال له يوماً:

أصَقَّعت العتاريف؟ فقال الغلام: زقفليم.

فقال أبو علقمة: وما معنى زقفليم؟ فقال الغلام: وما معنى صَقَّعت  
العتاريف؟ قال أبو علقمة: قلت لك: هل صاححت الديوك؟ قال الغلام:  
وأنا قلت لك: لم يصح منها شيء.

- وقال لغلامه يوماً:

(١) كلمات لا معنى لها.

خذ من غريمنا هذا كفيلاً، ومن الكفيل أميناً، ومن الأمين زعيماً،  
ومن الزعيم عزيزاً. فقال الغلام للغريم: مولاي هذا كثير الكلام فهل  
معك شيء فارضاه الغريم. فخلّاه الغلام، فلما انصرف قال أبو علقمة: يا  
غلام، ما صنع غريمنا؟ فقال: سَقَع، قال: ويملك ما معنى سقع؟ قال:  
بَقَع. قال: ويملك وما معنى بقع؟ قال: استقلع. قال: ويملك وما معنى  
استقلع؟ قال: انقلع. قال: ويملك ولم طولت علي؟ قال: منك تعلمت.

### أبو علقمة والعوام:

- أحب أبو علقمة أن يداعب جارية كان يهواها فقال لها: يا خريدة،  
قد كنت أخالك عَرُوباً فإذا أنت نَوَار، ما لي أمِّك وتَشْتِنِي؟ فقالت: يا  
رقيع، ما رأيت أحداً يحب أحداً فيشتمه سواك.

- وبينما أبو علقمة في طريق من طرق البصرة إذ هاجت به مِرَّة<sup>(١)</sup>  
فسقط، وظن من رآه أنه مجنون، فوثب عليه قوم يعصرون إبهامه  
ويؤذنون في أذنه، فأفلت من أيديهم وقال: ما لكم تكأكم عليّ كما  
تكأكمون عليّ ذي جنة!!!؟ افرنقوا عني.

فقالوا: دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية.

- قصد أبو علقمة أبا زلال الحداء فقال: يا حداء أخذ لي هذا النعل.

قال: وكيف تريد أن أحذوها؟

فقال: خَصَّرَ نطاقها، وَغَضَّفَ مُعَقَّبَها، وَأَقَبَّ مُقَدَّمَهَا، وَعَرَّجَ وَنِيَّةَ  
الذَّوَابَةِ بحزم دون بلوغ الرصاف، وانجِل مخازم خزامها، وأوشك في  
العمل فقام أبو زلال فتأبط متاعه، فقال أبو علقمة: إلى أين؟ قال: إلى

(١) أي أصابه شيء من الهوس والخلط في الكلام.

«ابن القرية»<sup>(١)</sup> ليفسر لي ما خفي عليّ من كلامك.

## شهادة أبي علقمة:

في زقاق ضيق كمن عبد حبشيّ لآخر صقلبي يضمر له العداوة والبغضاء، وما أن أقبل الصقلبي حتى وثب عليه غريمه الحبشي وراح يوسعه ضرباً ولكماً.

صرخ الصقلبي التعس مستغيثاً ولكن ما من مغيث، فقد خلا الزقاق من المارة إلا أبا علقمة الذي شهد ما حدث، فناداه الصقلبي بصوتٍ واهنٍ طالباً منه الشهادة عند الأمير، فوافق أبو علقمة على الفور، ولكن كيف تكون شهادة من ألف التعمر والحذقة في حديثه؟

حسناً، لتترك ابن جني يروي لنا القصة كاملة<sup>(٢)</sup>: بينما أبو علقمة يسير على بغلة إذ نظر إلى عبيد أحدهما حبشي والآخر صقلبي، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلبي الأرض، وادخل ركبتيه في بطنه. وأصابه في عينيه، وعضّ أذنيه، وضربه بعصا كانت معه فشجّه وأسال دمه، فجعل الصقلبي يستغيث فلا يُغاث، فقال لأبي علقمة: إشهد لي. فقال: قدّمه إلى الأمير حتى أشهد لك.

فمضيا إلى الأمير، فقال الصقلبي: إن هذا ضربني وشجنتني واعتدى عليّ. فجحده الحبشي، فقال الصقلبي: هذا يشهد لي.

فنزل أبو علقمة عن بغلته وجلس بين يدي الأمير، فقال له الأمير: بم تشهد يا أبا علقمة؟ قال: أصلح الله الأمير، بينا أنا أسير على كودني هذا إذ مررت بهذين العبيدين، فرأيت هذا الأسحّم قد مال على هذا

(١) ابن القرية: من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة.

(٢) بغية الوعاة: ١٣٩/٢.

الأَبْقَعُ ، فَمَطَّاهُ عَلَى فَدْفَدٍ ، ثُمَّ ضَيْغَطَهُ بِرُضْفَتَيْهِ فِي أَحْشَائِهِ حَتَّى ظَنَنْتَ أَنَّهُ  
تَدَمَّجَ جَوْفَهُ ، وَجَعَلَ يَلْحَجُ بِشَنَاتِرِهِ فِي جَحْمَتَيْهِ يَكَادُ يَفْقُوهُمَا ، وَقَبِضَ عَلَى  
صِنَارَتَيْهِ بِمَبْرِمِهِ وَكَادَ يَجُدُّهُمَا ، ثُمَّ عَلَاهُ بِمَنْسَأَةٍ كَانَتْ مَعَهُ فَعَفَّجَهُ بِهَا ،  
وَهَذَا أَثَرُ الْجُرْيَانِ الْأَحْمَرِ عَلَيْهِ بَيِّنًا .

فَقَالَ الْأَمِيرُ : وَاللَّهِ مَا فَهَمْتُ مِمَّا قَلَّتْ شَيْئًا!! فَقَالَ أَبُو عُلْقَمَةَ : قَدْ  
فَهَّمْنَاكَ إِنْ فَهَمْتُ ، وَعَلَّمْنَاكَ إِنْ عَلِمْتُ ، وَأَدَيْتُ إِلَيْكَ مَا عَلِمْتُ ، وَمَا أَقْدَرُ  
أَنْ أَتَكَلَّمَ بِالْفَارَسِيَّةِ .

فَجَهَدَ الْأَمِيرُ فِي كَشْفِ الْكَلَامِ حَتَّى ضَاقَ صَدْرُهُ ، فَقَالَ لِلصَّقْبِيِّ :  
اعْطِنِي خَنْجَرًا . فَأَعْطَاهُ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَقْتَصِرَ لَهُ مِنَ الْحَبَشِيِّ ،  
فَكَشَفَ الْأَمِيرُ رَأْسَهُ وَقَالَ لِلصَّقْبِيِّ : شُجِّنِي خَمْسًا وَأَعْفِنِي مِنْ شَهَادَةِ  
هَذَا .

## أبو دلامة... نديم الخلفاء

في أواخر عهد الدولة الأموية أصاب المجتمع ازدهاراً كبيراً، وطففت على السطح مظاهر الثراء والترّف، فشُيّدت القصور ووُسِّعت الدور، وكثر المال في أيدي البعض، وقد أدى هذا الترف والبذخ إضافة إلى اختلاط العرب بالفرس والروم وغيرهم من الشعوب إلى تغيير عادات العرب وأنماط حياتهم، فشُغف الناس بالطرب وسماع النوادر، وتفتَّنوا في ابتكار وسائل اللهو وضروب الترفيه كالصيد والرياضة، والشطرنج والصوالجة، وغير ذلك، أما الخلفاء وكبار رجال الدولة فقد كان لهم حظ أوفر من التسلية والترفيه، إذ قرَّبوا إليهم المغنين والمطربين، وأقاموا في قصورهم مجالس للطرب والغناء، واللهو والتسلية، ومثل هذه المجالس تحتاج بلا شك إلى المضحكين وأهل الهزل ممن يروون النوادر والمُلمح، ويضحكون أصحاب المجالس، فكان أن ظهرت طبقة الندماء التي اعتاد أفرادها أن يترقوا أبواب الخلفاء والأمراء طمعاً في العطايا والمنح، فيجدون عندهم الحظوة والترحيب والمكان اللائق في صدر المجالس. ومع أفول العصر الأموي وبدء العهد العباسي ترسخ وجود الندماء في قصور الخلفاء، وأصبحت المنادمة صنعة لها أصولها وأسرارها، يحترفها البعض بقصد التكسب وجمع المال.

كانت صنعة المنادمة تتطلب من النديم مجموعة من الصفات

والمواهب تجعله بحق شخصاً فريداً ومتميزاً فالنديم - كما تصوّره كتب الأدب - شخص فكه مرح، متوقد الذكاء، قوي الحافظة، حاضر النكتة لطيف المعشر، سريع البديهة، لاذع الجواب ولا بأس أحياناً بشيء من المجون والتهتك.

وكان ثمن هذه المواهب دنائير وفيرة تملأ الجيوب وتكفي صاحبها عناء العمل.

في هذا الجو المترف المشبع بضروب التسلية واللهو كان لا بدّ أن نجد أثراً للمنادمة في الأدب، مرآة المجتمع الصادقة التي تعكس حياة الناس وأنماط معيشتهم، وهذا ما كان بالفعل، فقد اهتم الأدباء والمصنفون بتتبع نوادر الندماء وتقصي أخبارهم مع الخلفاء، وكانت هذه الأخبار والنوادر مادةً طريفةً لا يخلو منها كتاب من كتب الأدب، خصوصاً تلك التي تصوّر أنماط الحياة الاجتماعية كالأغاني ونهاية الأرب.

وقائمة أعلام الندماء طويلة، وتضم أسماءً من قبيل: أبي الحسين الخليع، وأبي العبر، وأبي دلامة، والجَمَّاز، وأبي العيناء، وأبي الحارث جُمّين وغيرهم.

والحق أنّ من يستعرض هذه القائمة لا بدّ أن يستوقفه أبو دلامة وذلك لعدة أسباب: فهو من جهة واحد من أوائل الندماء ورواد صناعة المنادمة في المجتمع العباسي، وهو من جهة ثانية نموذج مثالي للنديم الظريف الذي يستجمع في شخصه أهم الخلال والمواهب المطلوبة من النديم، وهو من جهة ثالثة «شاعر مجيد زاحم الشعراء في جميع فنونهم، وانفرد في وصف الشراب والرياض، وغير ذلك بما لا يجرون معه فيه»



كما ذكر الخطيب البغدادي<sup>(١)</sup> لكنه كان من أكثر الشعراء ظرفاً، وأبرعهم نكتةً، وأحلامهم فكاهةً، وأسرعهم بديهةً، وله مع مؤسس الدولة العباسية أخبار ونوادير كلها طريف مستملح، ولكن قبل أن نمضي في عبث أبي دلامة وهزله مع خلفاء بني العباس لنقترب منه أكثر ولنتعرف عليه إنساناً وشاعراً.

## من هو أبو دلامة؟

لا تُعرف على وجه الدقة سنة ولادة زَند بن الجَوْن الذي يُكنى بأبي دلامة، فقد وُلد نكرةً، وكان عبداً أسود لرجل من بني أسد ثم أعتقه فيما بعد. عاش شبابه في أزقة الكوفة وحواريها وقد أَلف البطالة والخمول، إذ لم تكن بيده صنعة أو حرفة يتقوّت منها، لكنه كان يملك ما هو أهم من الصنعة والحرفة، يملك شاعريةً وظرفاً لا يجاريه فيهما أحد، ولعله أدرك أهمية مواهبته تلك والتي تؤهله لبلوغ أعلى المراتب، ولذلك وجدناه يطرق أبواب الأمويين علّه يجد عندهم الحظوة والمكانة التي يطمح إليها، لكنه قُوبل بالصدِّ والجفاء لم يكن يعلم أن قدره سيسوقه إلى قصور بني العباس الذين صعدوا على حطام الدولة الأموية قوةً جديدةً فتيةً.

كان العباسيون تواقين إلى شيء من اللهو والمرح ينسيهم المكائد والدسائس التي حاكوها، والدماء التي أراقوها في سبيل الحكم، ووجدوا ضالتهم في أبي دلامة، ذاك الشاعر الفكه الطريف، فلمع نجمه فجأة كنديم في بلاط العباسيين أيام أبي العباس السفاح، ليلبغ أوج شهرته أيام أبي جعفر المنصور، ثم المهدي اللذين كانا يقدمانه ويصلنانه ويستطيبان

(١) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، ٤٨٨/٨.

مجالسته والاستماع إلى نوادره كما ذكر صاحب الأغاني<sup>(١)</sup>.

وقد خلّد الرواة والمصنفون اسم أبي دلامة علماً من أعلام الفكاهة وأحد مشاهير ظرفاء العرب، ويمكننا أن نقف على أخباره في أمهات الكتب الأدبية كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ونهاية الأرب للنويري، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وغيرها.

عندما نقرأ نوادر أبي دلامة وأمثاله من الخُلَعَاء والمُجَّان يمكننا بالطبع أن نكتفي منها بالجانب الفكه الطريف، فنبتسم بسخرية، أو نضحك بطرب، ولكن يمكننا أيضاً أن نذهب أبعد من ذلك، فنستشف منها خبيثة هذا الرجل ودقائق نفسيته وفلسفة حياته، بحيث تغدو تلك النوادر صورةً صادقةً لذلك الخليع العابث الذي أَلِف البطالة والخمول والتكسب بالإضحاك والهزل.

هذا هو ببساطة أبو دلامة، ولعلنا سنعرفه أكثر عندما نقرأ نوادره وأخباره.

## أبو دلامة والخلفاء:

في ظل خلافة المنصور، ومن بعده المهدي، علت مكانة أبي دلامة، وخلصت منزلته، فأصبح النديم المفضل، والظريف المقرَّب الذي لا تطيب المجالس دونه، فمن ذاك أنَّ المهدي وعلي بن سليمان خرجا يوماً للصيد ومعهما أبو دلامة، فعزَّ لهما ظبي، فرماه المهدي فأصابه، ورمى علي بن سليمان فأخطأ وأصاب كلباً، فضحك المهدي وقال لأبي دلامة: قل في هذا. فقال:

(١) الأغاني: ٣٦٩٩/١٠.

قد رمى المهدي ظبياً      شكّ بالسهم فؤاده  
وعليّ بن سليماً      ن رمى كلباً فصاده  
فهنيئاً لهما كلُّ      امرئٍ يأكل زاده

- كان لأبي دلامة برذون (دابة من الفصيطة الخيلية) أعجف، محطّم، هرم، فدخل يوماً على المهدي وبين يديه سلّمة الوصيف، فقال للمهدي: إني جلبت للخليفة مهراً ليس لأحد مثله، وأحببتُ أن أهديه لك، فإن أحببتَ أن تشرفني بقبوله فعلت فأمر المهدي بإدخال المهر، فخرج أبو دلامة، ثم أدخل برذونه، فلما رآه المهدي قال لأبي دلامة: ويحك!! ألم تزعم أنه مهر؟ فقال أبو دلامة: أو ليس وصيفك سلّمة هذا تسميه وصيفاً وله ثمانون سنة؟ فإن كان سلّمة وصيفاً فهذا مهر. فجعل المهدي يضحك، وسلّمة يشتم أبا دلامة.

- دخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن علي، وعيسى بن موسى، والعباس بن محمد بن إبراهيم الإمام، وجماعة من أشرف بني هاشم، فقال له المهدي: أعطي الله عهداً لئن لم تهجّ واحداً ممن في هذا المجلس لأقطعنّ لسانك.

فنظر إليه القوم، وكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليّ رضاك. قال أبو دلامة: فعلت أني قد وقعت، وأنها عزمة من عزماته لا بدّ منها، فلم أرَ أحداً أحق بالهجاء مني، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي، فقلت:

ألا أبلغ إليك أبا دلامة      فلست من الكرام ولا كرامه  
إذا لبس العمامة كان قرداً      وخنزيراً إذا نزع العمامه  
جمعتَ دمامةً وجمعتَ لؤماً      كذاك اللؤم تتبعه الدمامه

فإن تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامة  
فضحك القوم ولم يبقَ أحدٌ إلا أجازه.

وكان من لوازم هذه المكانة امتيازات كثيرة خصَّ أبو دلامة بها نفسه  
نظير مرحه ومداعبته للخليفة، ولعل النادرة التي سنسوقها الآن تكشف  
بجلاء عن ذلك، إذ يروي صاحب الأغاني أن أبا جعفر المنصور كان قد  
أمر أصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها، وأن  
يعلقوا السيوف في المناطق ويكتبوا على ظهورهم: «فسيكفيكم الله وهو  
السميع العليم»<sup>(١)</sup>. فدخل عليه أبو دلامة في هذا الزيِّ فقال له أبو جعفر:  
ما حالك؟ قال: شرٌّ حالٍ، وجهي في نصفي، وسيفي في استي، وكتاب  
الله وراء ظهري، وقد صبغت بالسواد ثيابي.

فضحك المنصور وأعفاه وحده من ذلك، وقال له: إيَّاك أن يسمع  
هذا منك أحد<sup>(٢)</sup>.

### التكسب بالظرف:

لقد عرف أبو دلامة كيف يستغل ظرفه ودعابته في التكسب واقتناص  
المال. فقد اعتاد التطفل على مجالس الخليفة، وملازمته في حلِّه  
وترحاله، وهو ما فتى يتفنَّن في ابتكار طرق السؤال، وأساليب طلب  
المال، معتمداً في ذلك كله على الفكاهة وحسن التصرف وسرعة  
الجواب، فمن ذاك أنه دخل يوماً على المنصور (وقيل المهدي) وأنشده  
قصيدةً في المدح، فسُرَّ الخليفة منه وقال: سلني حاجتك. فقال: يا أمير  
المؤمنين هَبْ لي كلباً. فغضب المنصور وقال له: أقول لك سلني

(١) البقرة: ١٣٧.

(٢) الأغاني: ٣٧٠٠/١٠.

حاجتك فتطلب مني كلباً؟ فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك؟ فقال المنصور: بل لك. قال: فاني اسألك أن تهب لي كلب صيد. فأمر له بكلب صيد، فقال: يا أمير المؤمنين هَبْنِي خَرَجْتَ إِلَى الصَّيْدِ أَفَاعِدُو عَلِيَّ رَجُلِي؟ فأمر له بفرس. فقال: يا أمير المؤمنين من يخدم الفرس؟ فأمر له بغلام. فقال: يا أمير المؤمنين هَبْنِي صَدْتَ صَيْدًا وَأَتَيْتَ بِهِ الْمَنْزَلَ فَمَنْ يَطْبِخُهُ؟ فأمر له بجارية. فقال: هل يسكن هؤلاء في العراء؟ فأمر له بدار. فقال: يا أمير المؤمنين قَدْ صَيَّرْتَ فِي عُنُقِي جَمَلَةً مِنْ الْعِيَالِ فَمَنْ أَيْنَ لِي قُوَّتُهُمْ؟ قال: قد أقطعتك ألف جريب عامراً وألف جريب غامراً. فقال أبو دلامة: أما العامر فقد عرفته فما الغامر؟ قال: الخراب الذي لا شيء فيه. فقال أبو دلامة: أما أنا فأقطع أمير المؤمنين مئة ألف جريب بالبادية، ولكنني أسأل أمير المؤمنين جريباً واحداً عامراً. فضحك المنصور وجعلها كلها عامراً.

- وعندما قدم المهدي من الرِّيِّ دخل عليه أبو دلامة وأنشد قائلاً:

إِنِّي نَذَرْتُ لِيَنَّ رَأَيْتَكَ سَالِمًا      بَقْرَى الْعِرَاقِ وَأَنْتَ ذُو وَفْرِ  
لِتُصَلِّيَنَّ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ      وَلْتَمْلَأَنَّ دِرَاهِمًا حِجْرِي

فقال المهدي: صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أمَّا الدراهم فلا. فقال أبو دلامة: أنت أكرم من أن تُفَرَّقَ بَيْنَهُمَا ثُمَّ تَخْتَارُ أَسْهَلَهُمَا. فأمر المهدي بأن يُمْلَأَ حِجْرَهُ دِرَاهِمًا.

- ولدت لأبي دلامة بنتٌ ليلاً، فأوقد السراج وجعل يخيط خريطة<sup>(١)</sup> من شُقِّقِ مُسْتَطِيلَةٍ، فلما أصبح غدا بالخريطة إلى الخليفة المنصور، فاستأذن عليه - وكان لا يُحْجَبُ - فأنشده بيتين في المدح،

(١) الخَريطة: وعاء من جلد أو نحوه يُشَدُّ عَلَى مَا فِيهِ.

فقال له المنصور: أحسنت، أيُّ شيءٍ تريد؟ قال: وُلدت لي جارية. قال المنصور: فهلاً قلت فيها شعراً؟ قال: نعم، قلت:

فما ولدتك مريمُ أمَّ عيسى      ولا ربَّك لقمانُ الحكيمُ

ولكن قد تَضُمَّك أمُّ سَوءٍ      إلى لَبَّاتِها وأبُّ لئيمُ

فضحك المنصور وقال له: بأيِّ شيءٍ تحب أن أعينك به في تربيتها؟

فأخرج أبو دلامة الخريطة وقال: تملأ هذه الخريطة دراهم. فقال

المنصور: إملؤها له دراهم. فوسعت ألفي درهم.

ولعل من أطرف الحيل التي اعتاد أبو دلامة أن يلجأ إليها ليشبع

طمعه بالمال تليفق الأحلام الكاذبة، فمن ذاك أنه دخل على المنصور يوماً

وأنشده:

إني رأيتك في المنا      م وأنت تعطيني خياره

مملوءة بدراهم      وعليك تأويل العبارة

فقال له المنصور: امضِ فإتني بخياره أملؤها لك دراهم. فمضى

فأتى بأعظم دبابة توجد، فقال المنصور: ما هذا؟ قال أبو دلامة: يلزمني

الطلاق إن كنتُ رأيتُ غير دبابة<sup>(١)</sup> ولكني نسيت، فلما رأيت الدبابة

تذكرت.

ولم تمضِ أيامٌ حتى عاد أبو دلامة وجيوبه خاوية، فوقف بين يدي

المنصور وأنشد قائلاً:

رأيتك في المنام كسوت جلدي      ثياباً جَمَّةً وقضيتَ دَيْني

فكان بنفسجِي الخَزَفِ فيها      وساجٌ ناعمٌ فأتَمَّ زَيْني

(١) الدُّبَاءُ: القرع.

فصدّق يا فدتك النفس رؤيا رأتها في المنام كذاك عيني  
فأمر له المنصور بذلك وقال: لا تعد أن تتحلّم عليّ ثانية فأجعل  
حلمك أضغاثاً ولا أحققه.

### أبو دلامة وعامة الناس:

لم تقتصر نوادر أبي دلامة على منادمة الخلفاء ومداعبتهم فحسب،  
بل كانت له أخبار ظريفة مع العامة من الناس تكمل الصورة التي رسمتها  
نواده السابقة، وتبرز ما خفي من نزقه وسلاطة لسانه.

ونوادر أبي دلامة مع العامة تختلف بلا شك عن أخباره مع الخلفاء،  
فهذه الأخيرة تقوم - كما رأينا - على الهزل والحيلة الظريفة،  
والاستجداء والتصاغر الذي يصل أحياناً إلى حدّ الهجاء الشخصي، ولكنه  
ما أن يخرج من قصور الخلفاء وينزل إلى الأسواق والأزقة حتى يخلع عنه  
ثوب التصاغر والاحتشام الزائف الذي يظهره بين يدي الخليفة ليظهر على  
حقيقته: إنسان عابث مستهتر، وشاعر هجاء مقذع، يتحاشاه الناس خوفاً  
من سلاطة لسانه وبذاءة هجائه، ولعل النادرة التي ذكرها ابن خلكان  
تكشف لنا بجلاء عن هذا الجانب، إذ يروي صاحب وفيات الأعيان أن  
وَلَدَ أَبِي دَلَامَةَ مَرَضٌ ذَاتَ يَوْمٍ، فَاسْتَدْعَى لَهُ طَبِيباً لِيَدَاوِيَهُ، وَشَرَطَ لَهُ  
جُعْلاً مَعْلوماً، فَلَمَّا بَرئَ قَالَ لَهُ أَبُو دَلَامَةَ: وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ نَعْطِيقُكَ،  
وَلَكِنْ ادَّعِ عَلَيَّ فُلانَ الْيَهُودِيِّ - وَكَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ: بِمَقْدَارِ الْجُعْلِ وَأَنَا  
وولدي نشهد لك بذلك.

فمضى الطبيب إلى قاضي الكوفة - وكان يومئذ محمد بن عبد  
الرحمن بن أبي ليلى - وحمل إليه اليهودي المذكور، وادّعى عليه بذلك  
المبلغ، فأنكر اليهودي، فقال الطبيب: عندي بيّنة. فخرج وأحضر أبا

دلامة وولده، فخاف أبو دلامة أن يطالبه القاضي بالتركية، فأنشد في  
الدهلزي بحيث يسمعه القاضي:

إِن النَّاسُ غَطُّونِي تَغَطَّتْ عَنْهُمُ      وَإِن بَحَثُوا عَنِّي ففِيهِمْ مَبَاحِثُ  
وَإِن نَبَشُوا بَثْرِي نَبَثَ بَثْرَهُمْ      لِيَعْلَمَ قَوْمٌ كَيْفَ تَلِكِ النَّبَاطِثُ  
ثم حضرا بين يدي القاضي وأدّيا الشهادة، فقال له القاضي: كلامك  
مسموع، وشهادتك مقبولة.

ثم غرّم القاضي المبلغ من عنده وأطلق اليهودي، وما أمكنه أن يردّ  
شهادته خوفاً من لسانه، فجمع بين المصلحتين، وتحمل الغرم من  
ماله<sup>(١)</sup>.

- ومرّ أبو دلامة بتمّار بالكوفة فقال له:

رَأَيْتِكَ أَطْعَمْتَنِي فِي الْمَنَامِ      قَوَاصِرَ مِنْ تَمْرِكَ الْبَارِحَةِ  
فَأُمُّ الْعِيَالِ وَصَبِيَانِهَا      إِلَى الْبَابِ أَعْيُنُهُمْ طَامِحَةٌ  
فأعطاه قفةً كبيرةً من التمر وقال له: إن رأيت هذه الرؤية ثانية لم  
يَصِحَّ تَفْسِيرُهَا.

فأخذها أبو دلامة وانصرف.

ونختم حديثنا بشعر لأبي دلامة نشتمّ منه رائحة المجون الذي اشتهر  
به وغطّى جانباً من شعره وأخباره، ولكنني آثرت أن لا أذكر شيئاً منه،  
وحسب المستزيد أن يرجع إليه في مظانه في كتب الأدب.

أما النادرة التي اخترتها هنا فأحسب أنها اللون الأخير الذي ستكتمل  
به صورة أبي دلامة، إذ يروي صاحب الأغاني أن أبا دلامة دخل ذات يومٍ

(١) وفيات الأعيان: ابن خلكان، ٣٢٥/٢.



على إسحاق الأزرق يعوده، وكان إسحاق قد مرض مرضاً شديداً ثم تعافى منه وأفاق، فكان من ذلك ضعيفاً، وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تقويّ بدنه، فقال أبو دلامة للطبيب: يا بن الكافرة! أتصف هذه الأدوية لرجل أضعفه المرض! ما أردتَ والله إلا قتله. ثم التفت إلى إسحاق وقال: اسمع أيها الأمير مني. قال: هات ما عندك يا أبا دلامة. فأنشد يقول:

نَحُّ عَنْكَ الطَّيِّبِ وَاسْمِعْ لِنَعْتِي	إِنِّي نَاصِحٌ مِنَ النَّصَّاحِ
ذُو تَجَارِيِبٍ قَدْ تَقَلَّبْتَ فِي الصَّحْرِ	حَةَ دَهْرًا وَفِي السَّقَامِ الْمُتَّاحِ
غَادِ هَذَا الْكِبَابِ كُلَّ صَبَاحٍ	مِنْ مُتُونِ الْفَتِيَّةِ السُّحَّاحِ
فَإِذَا مَا عَطَشْتَ فَاشْرَبْ ثَلَاثًا	مِنْ عَتِيقٍ فِي الشَّمِّ كَالْتَفَاحِ
ثُمَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَاعْكُفْ عَلَيَّ ذَا	وَعَلَى ذَا بِأَعْظَمِ الْأَقْدَاحِ
فَتُقَوِّيَ ذَا الضَّعْفِ مِنْكَ وَتُلْفَى	عَنْ لِيَالٍ أَصَحَّ هَذَا الصَّحَّاحِ
ذَا شِفَاءٍ وَدَعِ مَقَالَةَ هَذَا	... ذَا أُمَّه ب... رِبَاحٍ <sup>(١)</sup>

(١) الأغاني: ٣٧٣٤/١٠، ومكان النقاط كلمات لا يليق ذكرها.

## أبو الحارث جُمَيْنَ ظريف المجالس

وجه بشوش وثمر ضاحك، نكتة حاضرة وظرف واضح، تحامق وتباله تارةً، وذكاءً وحيلة بارعة تارةً أخرى. تلك هي أبرز سمات أبي الحارث جُمَيْنَ وأخص صفاته. ولكن من هو أبو الحارث جُمَيْنَ هذا؟ أين ولد وكيف عاش ومتى توفي؟ أسئلة طافت في مخيلتي وأنا أتابع عبث أبي الحارث جُمَيْنَ في كتب الأدب، دفعني الفضول إلى البحث في كتب التراجم وأسفار التاريخ علني أعثر على أجوبة لتساؤلاتي، ولكنني خرجت صفر اليدين من ذلك كله، فهذا الظريف الذي شغل الرواة والمصنفين وأضحك الأمراء والرعايا بقي اسماً مجهول التاريخ والهوية، ربما لأنه لم يكن صاحب شاعرية وإبداع شأن بعض وجوه الفكاهة في الأدب العربي كأبي دلامة وأبي نواس وأبي الشمقمق، فهو مجرد هازل مضحك لا يخلو زمان من أمثاله، فعلام الاحتفاء به وتدوين سيرته مع فحول الشعر وعبارة العلم وأعلام الفكر؟

بهذا المنطق تعامل الرواة والمصنفون مع أمثال أبي الحارث جُمَيْنَ، فاتفقوا على تجاهل سيرته وإلقائها في بحر النسيان، وحسبه أن تُخلد نواذره في كتب الأدب ولتكن سيرته ما تكون.

### أبو الحارث جُمَيْنَ في كتب الأدب:

على أن قراءة متأنية لكتب الأدب التي حوت الكثير من أخبار أبي

الحارث لا بدّ أن تكشف لنا عن جوانب من شخصيته وملامح نفسيته وسلوكه، وربما ألفت الضوء على شيء من حياته وتاريخه اللذين اغفلهما المؤرخون عمداً، وبتتبع مجمل النوادر والأخبار المنسوبة لأبي الحارث والمتنورة في معظم كتب الأدب يمكننا أن نخرج بصورة لصاحبنا أبي الحارث احسب أنها اصدق من أي ترجمة أو تعريف.

ما هي هذه الصورة؟ وكيف نقرأ أبا الحارث في كتب الأدب؟

أبو الحارث جُمِين<sup>(١)</sup> واحد من ظرفاء العرب المشهورين والمضحكين المحترفين، عُرف بظرف الطباع وحلاوة الدعابة وحضور النكتة وسرعة البديهة، وقد برع في ذلك كله حتى اضحى في زمانه علماً من أعلام الفكاهة والضحك لا يجاربه فيهما أحد، وحسبك في هذا المقام شهادة ناقد خبير في فنون الفكاهة وألوان الظرف. وأعني به الجاحظ، فقد ادرج هذا الأخير صاحبنا أبا الحارث مع محترفي الهزل والضحك الذين ملكوا قدرةً عجيبةً على انتزاع الضحكات والقهقهات من الأعماق لأقل حركة أو كلمة، بل «لو أن رجلاً ألزق نادرةً بأبي الحارث جمين... ثم كانت باردةً لجرت على أحسن ما يكون» على حد تعبير الجاحظ<sup>(٢)</sup>.

في ذلك الزمان كان أمثال أبي الحارث من محترفي الهزل والإضحاك يعيشون حياة خمول وبلادة، إذ لم تكن بيد واحد منهم حرفة

(١) ذكر صاحب القاموس في مادة (جَمَنَ): أبو الحارث جُمِين: كقبيط المدني، ضبطه المُحدثون بالنون، والصواب بالزاي المعجمة، وقد أنشد أبو بكر بن مُقسم:

إنَّ أبا الحارث جُمِينَا      قد أوتِيَ الحكمة والميَزَا

(٢) البخلاء للجاحظ: ٣١/١.

يتكسب منها إلا الظرف وحب الدعابة وحضور النكتة، وهي مواهب تفتح لصاحبها أبواب الملوك والأمراء والأغنياء، فيتصدر مجالسهم ويتطفل على مواعدهم، وينفق من أموالهم، بل ويفرض سطوته وهيبته على الناس باسمهم، كل ذلك بشرط أن يُمتَّع أهل الدور والقصور بالتوادر المسلية، والطرائف المبتكرة، والمقالب الهازلة.

هكذا عاش أرباب الظرف والهزل في ذاك الزمان، وهكذا عاش صاحبنا أبو الحارث جُمَّين، إذ يُستدل من بعض الأخبار أنه اتصل بخالد ابن برمك، وبابنه يحيى، وبأولاد يحيى: الفضل وجعفر ومحمد، وكانت له مع هذا الأخير نوادر ومداعبات طريفة جُأها حول البخل والشح، وعن طريق هؤلاء البرامكة اتصل أبو الحارث بالرشيد وبعض الهاشميين.

يندر أن يخلو كتاب من كتب الأدب من بعض نوادر أبي الحارث، إذ يمكننا أن نقف على تلك النوادر والملح في العقد الفريد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وجمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري، والبصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، كما أفرد لها الآبي فصلاً مستقلاً في كتاب نثر الدر، ويقوم أسلوب أبي الحارث في الإضحاح على الدعابة التي تولد في ساعتها دون تكلف أو تصنع معتمداً في ذلك على ما جُبل عليه من ظرف متأصل وحب للنكتة وميل إلى الدعابة، فهو يترك نفسه على سجيتهما تتحدث بما شاءت، فإذا بكلامه يستحيل نوادر مضحكة، وطرائف مستملحة، وغالباً ما تكون نوادره استجابةً لموقف طريف أوقع نفسه فيه، أو جواباً لاذعاً على سؤال محرج وجه إليه.

والآن أحسب أنك في شوق لسماع بعض نوادر أبي الحارث جمين،  
حسناً، إليك بغيتك مما اخترناه من نوادر هذا الفكه الظريف:

- قيل لأبي الحارث جمين: سبقت بيرذونك (دابة من الفصيلة  
الخيالية) هذا قط؟ قال: بلى، مرة دخلنا زقاقاً لا منفذ له وكنت آخر  
القوم، فلما رجعنا كنت أول الموكب!

- سقط أبو الحارث من سطح، فقيل له: أكان السطح مرتفعاً؟ قال:  
لا تسأل عن شيء، استطبت برد الهواء قبل الوصول إلى الأرض.

- قال رجل: اشتهي أن أرى خلفي. فجاءه أبو الحارث بمرآة  
فجعلها تلقاء وجهه وقال: انظر تر ما اشتهيت رؤياه.

- نصب مع رفقاء له قدراً وجعل فيها لحماً، فلما تلهّوجت<sup>(١)</sup> نشل  
بعضهم قطعة وقال: تحتاج إلى ملح. ونشل آخر قطعة وقال: تحتاج إلى  
إبزار<sup>(٢)</sup> ونشل آخر قطعة وقال: تحتاج إلى بصل. ونشل آخر قطعة  
وقال: هي طيبة ولكنها تحتاج إلى شيء لا أدري ما هو؟ فرفع أبو الحارث  
القدر وقال: والله تحتاج هذه القدر إلى لحم!!!

- قعد أبو الحارث إلى قينة بالمدينة صدر النهار، فجعلت تحادثه  
ولا تذكر الطعام، فلما طال ذلك به قال: ما لي لا أسمع للطعام ذكراً؟  
قالت: سبحان الله!!! أما تستحي؟! أما في وجهي ما يشغلك عن هذا؟  
فقال لها: جعلت فداك لو أن جميلاً وبثينة قعدا ساعةً واحدةً لا يأكلان  
شيئاً لبصق كل واحدٍ منهما في وجه صاحبه وافترقا.

(١) تلهّوج اللحم: لم ينضج.

(٢) الأبرار: التوابل.

- اختلف الرشيد وبعض من يحضره من أهل بيته في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال الرشيد: نسأل أبا الحارث جُمين. فأحضره فقال له الرشيد: يا أبا الحارث، ما تقول في اللوزينج والفالوذج أيهما أطيب؟

فقال: يا أمير المؤمنين لا أقضي على غائبين. قال الرشيد: فأحضروهما إياه. فجعل أبو الحارث يأكل من الفالوذج ساعةً ومن اللوزينج ساعةً، فقال له الرشيد: أيهما أطيب؟ أقضي على أحدهما. فقال: يا أمير المؤمنين ما وجدت أقوى من هذين الخصمين، كلما هممت أن أقضي لأحدهما أدلى الآخر بحجته.

### أبو الحارث والبخلاء:

ومن طريف أخبار أبي الحارث تلك العداوة المتبادلة بينه وبين بخلاء عصره وعلى رأسهم محمد بن يحيى البرمكي، إذ كان البخلاء هدفاً لسهام سخريته، ومادةً طريفةً تغري ظريفنا بالتهكم بهم والتندر بحالهم، ولعل شره أبي الحارث وشغفه بلذيد الطعام من جهة، وشح البخلاء الذين يتطفل على موائدهم وتقصيرهم من إرضاء نهمه من جهة أخرى هو ما أوقع بين الطرفين، سيما وأن صاحبنا لم يلحظ من بخل البخلاء سوى شح موائدهم وهزالة طعامهم.

ومن الطريف أن أحد هؤلاء الذين أصابتهم سهام أبي الحارث قد انبرى لنصرة عصبته من النبلاء، ودفع تهم الشح والتقتير عنهم، فراح يكيل التهم لأبي الحارث ومن شاكلة من الظرفاء الطماعين متهماً إياهم باللؤم ونكران المعروف ومقابلة الإحسان بالإساءة، استمع إليه يقول

بلسان من أوجعته سياط السخرية: «... وفي الجارود بن أبي سبرة لكم واعظ، وفي أبي الحارث جُمَيْن زاجر، فقد كانا يُدعيان إلى الطعام وإلى الإكرام لظرفهما وحلاوتهما وحسن حديثهما وقصّر يومهما، وكانا يتشهيان الغرائب ويقترحان الطرائف<sup>(١)</sup> ويكلفان الناس المؤون الثقال، ويمتحنان ما عندهم بالكلف الشديد، فكان جزاؤهم من إحسانهم ما قد علمتم (أي الذم والسخرية)<sup>(٢)</sup>».

ولكن ماذا عن أبي الحارث؟ وبماذا يدافع عن نفسه؟ وكيف يرد هذه التهم؟

لندع نوادر أبي الحارث تدافع عنه ففيها القول الفصل:

- قيل لأبي الحارث: أتغديت عند فلان؟ قال: لا، ولكني مررت ببابه وهو يتغدي. قيل: وكيف علمت ذلك؟ قال: رأيت غلمانته ببابه بأيديهم قسي يرمون الطير في الهواء!! (يريد أنه يمنع الطير من الاقتراب منه).

- وقال له الرشيد: لم لا تدخل إلى محمد بن يحيى؟

فقال: أدخل والله يا أمير المؤمنين وأنا أكسى من الكعبة، وأخرج وأنا أعري من الحجر الأسود.

- وسأله يحيى بن خالد عن مائدة ابنه محمد فقال: أما مائدته فمن نصف كسرة، وأما صحافه فممنقورة من قشور حب الخشخاش، وما بين الرغيف والرغيف مدُّ البصر، وما بين اللون واللون فترّة ما بين نبي

(١) أي يطلبان من الطعام أطيبه وأغربه.

(٢) البخلاء للجاحظ: ١/١٢٩.

ونبي . قال فمن يحضرها؟ قال : خلق كثير من الكرام الكاتيين (أي  
الملائكة) قال : فمن يأكل معه؟ قال : الذباب . قال : فلماذا ثوبك مخرق  
ولا يكسوك وأنت معه وبفنائته؟ قال أبو الحارث : جعلت فداك ، والله لو  
ملك بيتاً من بغداد إلى الكوفة مملوءاً إبراً ، في كل إبرة خيط ، ثم جاءه  
جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب يسألونه إبرة يخيط بها قميص يوسف  
الذي قُدَّ من دُبُرٍ ما أعطاهم !!!



## ابن سودون إمام الشعراء الهازلين

لطالما تخيلت الأدب إنساناً متقلب المزاج، إذا غضب مجاً فأوجع،  
وإذا رقى تغزّل فتلطف، وإذا طرب مدح فأرضى، وإذا اکتأب رثا فأدمع،  
وإذا اندهش وانبهر وصف وأطنب.

فإذا كان أدبنا قد عالج جميع هذه الأطوار المزاجية للإنسان، أو  
بعبارة النقاد: الأغراض الشعرية، أفلم يكن للضحك والفكاهة مكان في  
هذا الأدب؟

درج أغلب الأدباء وأئمة الصنعة الأدبية كأبي تمام، وعبد العزيز بن  
أبي الأصبع على تصنيف الشعر ضمن أبواب تقليدية وفنون متوارثة من  
الغزل والوصف، والفخر والمديح، والهجاء والرثاء، وغيرها، لكننا لا  
نجد ذكراً للشعر الفكاهة ضمن هذه الفنون والأغراض الشعرية، وكأن النقاد  
قد تواطؤوا على إهماله ونفي الصفة الأدبية عنه، ولعل المرحوم مصطفى  
صادق الرافعي كان يعبر عن هذا الموقف السلبي عندما قال: «إنه (أي  
الشعر الهزلي) لا يقوم عليه شيء من أمر اللغة، فإذا كان فيها لم يزد لها،  
وإذا سقط منها لم ينقصها، ولذلك ترى هذا النوع أكثر ما يكون في الأمم  
التي هرمت لغتها كاللاتين واليونان<sup>(١)</sup>».

لا جرم أنه لم يكن للعرب شعر هزلي في جاهليتهم لكنهم مع ذلك

(١) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب اللغة العربية: ١٣٨/٣.

لم يدعوا التنادر، فقد نقل الرواة أشعاراً وقصائد جاهلية نلمس فيها روح التهكم والسخرية اللاذعة التي تصب في فن الهجاء، وقد مرَّ العصر الجاهلي، ومن بعده الأموي دون بروز شيء يذكر من الشعر الهزلي، ولعل البدايات الحقيقية لذلك الفن كانت في العصر العباسي. وذلك بعد أن استقر المجتمع وتفشى فيه الترف والرخاء، إذ تنقل لنا كتب الأدب أسماء شعراء ظرفاء اتخذوا المنادمة والتظرف والهزل في الشعر صنعة لهم ووسيلة تكسبهم وإلى جانب هؤلاء برز شعراء آخرون طُبِعوا على الظرف وحب الفكاهة، فأنشدوا أشعاراً فكهة لا بقصد التكسب بل انسياقاً مع سجاياهم المرححة، وطباعهم الفكهة، لكن الموضوع التقليدي الذي غلب على الشعر الفكه في تلك المرحلة كان التهكم والسخرية، وخير من يمثل هذا الاتجاه في الشعر ابن الرومي رأس الشعراء الساخرين الذي يحفل ديوانه بضروب السخرية التي أصابت نماذج بشرية مختلفة، كالأحذب، والقيح، والأصلع، وذو اللحية، والبخيل، والمغني قبيح الصوت.

كذلك وجدنا البهاء زهير يسلط سياط سخريته على ظهور الكثيرين مقتنياً بذلك أثر ابن الرومي، وقريب من ذلك سخرية أبي نواس من بعض بخلاء عصره.

وإذا خرجنا من دائرة التهكم أمكننا العثور على نماذج معدودة لشعر هزلي بريء من الهجاء والسخرية تناول مواضيع اجتماعية مختلفة بأسلوب هزلي فكه، ومن هذا القبيل شعر أبي الشمقمق في التندر بحاله ووصف فقره، ومن ذلك أيضاً بعض أشعار أبي دلالة وخصوصاً قصيدته في وصف بغلته وتعداد عيوبها، وشبيه بها الأبيات التي رواها بشار بن برد على لسان حماره في التغزل بأتان.

ومن الأسماء الأخرى البارزة في هذا المجال: علي بن عبد الواحد

الملقب بذي الرقاعتين، وله مقصورة في الهزل يعارض فيها مقصورة ابن دريد المشهورة في المواعظ والحكم، وأبو عبد الله بن الأزرق وله قصيدة هزلية ذكر فيها صوت الصفع والضحك كما هو.

ورغم أهمية التجارب السابقة في إنشاء شعر هزلي فإنها لا تعدو أن تكون محاولات فردية خاصة لا تطبع صاحبها بميَّسَم الهزل والفكاهة، كما لا تؤسس مذهباً في الشعر الهزلي، ومن هنا كان علينا أن نتنظر إلى مطلع القرن التاسع الهجري، حيث سيظهر في ذاك القرن شاعر تخصص في الفكاهة والهزل، ووقف شعره كَلِّه على الدعابة والاضحاك. ذاك الشاعر هو ابن سودون.

### بيئة ابن سودون:

الشعب المصري شعب مرح ساخر بطبعه، يحب الفكاهة ويميل إلى الدعابة، ويرسل النكتة في أخرج المواقف، وكان من الطبيعي أن تسري هذه الروح الفكاهة في الأدب مرآة المجتمع، فلم تخلُ حقبة من أحقاب التاريخ المصري من شاعر أو أديب عُرف بالظرف وحب الدعابة من أمثال:

ابن قادوس الدمياطي شاعر السخرية اللاذعة والهجاء المقذع، وابن مماتي صاحب كتاب «الغاشوش في حكم قراقوش»، وأبي الحسين الجزَّار الذي كان يشكو الفقر والحاجة ومعاناة الأيام له بأسلوب فكه ساخر، ومحمد بن دانيال أحد رواد صناعة خيال الظل في مصر، وغيرهم كثير، فغلب على القاهرة جو مشبع بضروب الفكاهة وألوان التظرف والتنادر بلغ أوجه في عصر المماليك بعد أن «فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية، وخلد المصريون إلى رخاء شاعت فيه فنون من اللهو واللعب، وتفجرت ينابيع الفكاهة في أنفسهم»<sup>(١)</sup>.

(١) د. شوقي ضيف: الفكاهة في مصر: ص ٥٤.

هناك، في القاهرة المملوكية، وُلد أبو الحسن علي ابن سَوْدُون  
البَشْبَغَاوي سنة ٨١٠هـ.

كان أبوه قاضياً معروفاً يُشار إليه بالبنان، فأراد لابنه أن يقتفي أثره  
وينشأ على سيرته في العلم والتقوى والوقار، فدفعه إلى مجالس علماء  
عصره يأخذ عنهم العلوم الشرعية واللغوية من الفقه والعقيدة والنحو  
والعروض.

لكن الابن خيب آمال والده، إذ لم يكن له شأن يُذكر في ميدان  
العلم والفقه، وإذا كان ابن العماد قد نعتَه بـ «الإمام العلامة<sup>(١)</sup>» فإننا لم  
نعثر في سيرته على ما يؤيد هذا الزعم، اللهم إلا بعض المعالم اليسيرة  
من قبيل توليه الإمامة في بعض المساجد، وخروجه للغزو والجهاد،  
وأدائه فريضة الحج عدة مرات<sup>(٢)</sup>.

لكن شهرته الحقيقية كانت في ميدان آخر، فقد نظم الشعر وبرع  
فيه، بيد أنه لم يكن كسائر الشعراء مداحاً أو هجّاءً أو وصافاً، بل لقد  
سلك في شعره مسلكاً جديداً قوامه الهزل والعبث والتبالة والتغافل،  
معتمداً في ذلك على ميل متأصل إلى الفكاهة والهزل، وقدرة على نظم  
الأشعار الهازلة المفكّهة «فراج أمره فيه، وطار اسمه بذلك، وتنافس  
الظرفاء في تحصيل شعره» كما يقول السخاوي<sup>(٣)</sup> ثم رحل إلى دمشق  
حيث زاول هناك صنعة قريبة الصلة بالهزل والفكاهة، وهي صنعة خيال  
الظل، وقد استمرت إقامته في دمشق حتى توفي فيها سنة ٨٦٨هـ.

وقد ترك ابن سودون عدة كتب هي:

(١) ابن العماد: شذرات الذهب: ٤٥٥/٩.

(٢)(٣) السخاوي: الضوء اللامع: ٢٢٩/٥.

١- ديوان «نزهة النفوس ومضحك العبوس»: وهو كتاب طريف جمع فيه أشعاره الهازلة، ودعاباته الفكهة.

٢- قرّة الناظر ونزهة الخاطر: وهو منتخبات من ديوان نزهة النفوس.

٣- الفوائد اللطيفة: وهو أيضاً مختارات من ديوانه السابق.

٤- وله مقامتان فكاھيتان محفوظتان في مكتبة برلين.

وستكون لنا وقفة مطولة مع كتابه «نزهة النفوس ومضحك العبوس».

### نزهة النفوس ومضحك العبوس:

وهو كتاب طريف جمع فيه ابن سودون أشعاره الهازلة ودعاباته الفكهة، وقد قسمه إلى قسمين:

القسم الأول في «المدح والغزل وغيرهما من الجديات»، وأما القسم الثاني - وهو القسم المتصل بالهزل والفكاهة - فقد جعله ابن سودون في خمسة أبواب: الباب الأول في «القصائد والتصديق» ويقصد بالتصديق مقدماتها، وقد حشد في هذا الباب مجموعة من أشعاره الهازلة، وقصائده الفكهة التي نظمها بالعربية الفصحى.

والباب الثاني في «الحكايات الملافيق» ويضم أقاصيص نثرية قصيرة كتبها بلغة تجمع بين الفصحى والعامية المصرية الدارجة.

والباب الثالث في «الموشحات الهبالية» وأغلبها باللهجة العامية، ومثله أيضاً الباب الرابع في «الدوييت والزجل والموالية» فهو أيضاً عامي اللغة.

أما الباب الخامس فقد جعله في «التحف العجيبة والطرف الغريبة» ويعرض فيه مجموعة من الأمثال الشعبية التي شاعت على ألسنة العامة، فيجتهد لتفسيرها وشرح غموضها بأسلوب ساخر مضحك. يتمتع كتاب «نزهة النفوس ومضحك العبوس» بقيمة أدبية كبيرة لا تخفى على الدارس أو الباحث، إذ يندرج هذا الكتاب ضمن فن الأدب الساخر الذي يركز على إبداع الكاتب وخياله المحض، متجاوزاً بذلك الإطار التقليدي في التأليف الأدبي الفكاهي الذي يعتمد على جمع النوادر والميلح من بطون الكتب وأفواه الناس دون أن يكون للمصنف أي دور سوى الجمع والتبويب، وربما التعليق في بعض الأحيان.

ومن جهة أخرى فقد شكل هذا الكتاب انطلاقة لأدب هزلي ساخر بريء من الهجاء اللاذع والتهكم المرير الذي غلب على الشعر الفكاهي قبل ابن سودون.

## الغرائب والعجائب

يقوم أسلوب ابن سودون في الفكاهة والهزل على التحامق والتباله وإظهار الغفلة بطريقة عجيبة مضحكة، إذ يبدأ ابن سودون قصيدته بأسلوب جدي يشعر بأنه سيقول أمراً قيماً مفيداً، حتى إذا تنبّهت وأصغيت جيداً فوجئت به يسرد مجموعة من البدهيات المسرفة في البدهاة وكأنها اكتشافات هامة استنتجها بعد طول تفكير وعميق تأمل، كل ذلك في قالب جاد رصين فلا تملك إلا الضحك من هذه المفارقة، كيف ذلك؟ حسناً، لنستمع إلى ابن سودون يروي لنا بعض الغرائب التي شاهدها في البلدان البعيدة، وشيئاً من المعارف التي أحاط بها بعد طول خبرة وتجربة:

إذا ما الفتى في الناس بالعقل قد سما  
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل  
وإني سأبدي بعض ما قد علمته  
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم  
وإن أبي زوجٌ لأمي وإنني  
وكم عجبٍ عندي بمصر وغيرها  
وفي نيلها من نام بالليل بله  
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائماً  
وفي الشام أقوام إذا ما رأيتهم  
بها البدر حال الغيم يخفي ضياؤه  
وتسخن فيها النار في الصيف دائماً  
وفي الصين صينيٌّ إذا ما طرقتَه  
بها يضحك الإنسان أوقات فرحه  
ومن قد رأى في الهند شيئاً بعينه  
وفيه رجالٌ هم خلاف نسائهم  
وما علّمتني ذاك أُمي ولا أبي

تيقن أن الأرض من فوقها السما  
وبينهما أشياء إن ظهرت ترى  
لتعلم أني من ذوي العقل والحجا  
ومنهم أبو سودون أيضاً وإن قضا  
أنا ابنهما والناس يعرفون ذا  
فمصر بها نيلٌ على الطين قد جرى  
وليست تبلُّ الشمس من نام في الضحى  
بها الظهر قبل العصر قيل بلا مِرا  
ترى ظهر كلِّ منهم وهو من ورا  
بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا  
ويبرد فيها الماء في زمن الشتا  
يطنُّ كصينيٍّ طرقت سوا سوا  
وبيكي زمانَ الحزن فيها إذا ابتلى  
فذاك له في الهند بالعين قد رأى  
لأنهم تبدو بأوجههم لِحَى  
ولا امرأةٌ قد زوّجاني ولا حما  
وغرائب ابن سودون لا تنتهي أبداً،  
فها هوذا يجلو ببصره يمّنة  
ويسرة، فلا يجد إلا عجائب لا يدرك كُنْهها،  
وغرائب لا يفقه سرها، فلا  
يملك إلا أن يعلن عجبه وحيрте مما يدور حوله،  
فما هي تلك الألغاز التي  
ارقت بال شاعرنا؟ لنصغ إلى ابن سودون:

عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبٌ  
بقر تمشي ولها ذنب!!

ولها في بزبزا لبنٌ  
لا تغضب يوماً إن شُتمت  
من أعجب ما في مصر يُرى الـ  
والنخل يُرى فيه بلحٌ  
البيض إذا جاعوا أكلوا  
والناقة لا منقار لها  
لا بد لهذا من سببٍ

ويمضي ابن سودون في عبثه المضحك هذا، فيجهد نفسه في تقرير  
البدهيات، ويغلو في ذلك غلو البله على نحو ما نجد في قوله:

البحر بحرٌ والنخيل نخيل  
والأرض أرضٌ والسماء خلفها  
وإذا تعاصفت الرياح بروضة  
والفيل فيلٌ والزراف طويل  
والطير فيما بينهن يجول  
فالارض تثبت والغصون تميل

ولا يدع ابن سودون الهزل والفكاهة حتى في أشد المواقف الإنسانية  
جديّة ورهبةً وهو الموت، فقد فُجع ابن سودون بوفاة أمه، فأراد أن  
يرثيها ويعدد مناقبها، لكنه بدل أن يسكب العبرات ويطلق الآهات شأن  
شعراء الرثاء، راح يسترجع ذكريات الطفولة مع أمه بأسلوب هزلي  
مضحك، فتحولت المرثية إلى قصيدة هزل ودعابة، إذ يقول:

لموت أمي أرى الأحزان تُحنيني  
وطالما دلّعتني حال تربيتي  
أقول «مَمَّ مَمَّ» تجي بالأكل تطعمني  
إن صحت في ليلةٍ «وأوأ» لأسهرها  
مظالما لحستني لحس تُحنيني  
خوفاً على خاطري كي لا تبكيني  
أقول «إمبو» تجي بالماء تسقيني  
تقول «هوهو» بهزّ كي تُننيني



كم كَحَلَّتْني ولي في جبهتي جعلت  
وربما شكشكتني حين أغضبها  
ومن فقيهي إن أهرب ورام أبي  
وزغرطت في طهوري فرحةً وغدت  
وفي زواجي تصدَّت للجلاء عسى  
وربَّت أولاداً أيضاً مثل تربيتي  
وخَلَّفْتَنِي يتيماً ابن أربعةٍ  
يعظَّم اللهُ فيها الأجر لي وكذا

«صو صو بنيلي» وكم كانت تحبيني  
وبعد ذا كشكشتني كي تُرضيني  
مسكي وبعثي له كانت تُخبيني  
تنثر الملح من فوقي وترقيني  
على المنصَّة تلقاني بتزيين  
وبعد ذلك ماتت آه وأنيني  
وأربعين سنيناً في حسابيني  
لي في من بعدها جودوا بآمين

وفي مكان آخر من ديوانه يصف هذا الشاعر الظريف حفل زواجه  
الذي ظهر في ليله الطالع السعيد، وغطى الورد والفل والياسمين وجه  
الأرض، وغنت الطيور، وارتفعت الزغاريد، ويصف كيف زفَّ أصحابه  
بين الرقص والغناء حتى وصلوا به إلى عروسه، وهنا تكون المفاجأة!!

حلَّ السرور بهذا العقد مبتدراً  
والفلُّ كلُّ وجه الأرض فانعطفت  
والطير من فرحها في دوحها صدحت  
تقول في صدحها: دام الهنا أبداً  
وكنت عند زفافي قد وصلت إلى  
فكنت أعرف من عقلي وكثرته  
هذا وعقل عروسي كان أصغر من  
في السنِّ قد طعنت، ماضرَّ لو طعنت  
في وجهها نمش، في أذنها طرش

ونجم طالعها بالسَّعد قد ظهرها  
أغصانه بالتهاني تنثر الزهرا  
بكل عودٍ عليه لا ترى وترا  
على العرائس كي يقضوا به الوطرا  
حدَّ الأشدِّ، وعقاي في الوري اشتهرا  
أني إذا نمت معَ ظهري يكون ورا  
عقلي ولكن حوت في عمرها كبراً  
بالسنِّ من رمحٍ أو سيفٍ إذا بترها  
في عينها عمشٌ للجفن قد سترها

في بطنها بَعَجٌ، في رجلها عرَجٌ  
في ظهرها حَدَبٌ، في قلبها كدر  
يا حُسْن قامتها العوجا إذا خطرَتْ  
تظل تهتف بي : حسناً حظيت بها  
في كفها فَلَجٌ، ما ضرَّ لو كُسرا  
في عمرها نُوبٌ كم قد رأت عبرا  
يوماً وقد سَبَسَبَتْ في جيدها شعرا  
أواه لو حاسها موتٌ لها قبراً

## حكايات ابن سودون :

ولا يقتصر كتاب «نزهة النفوس» على الشعر فقط بل لقد ساق فيه ابن سودون بعض القصص والطرف الثرية الساخرة، وهي لا تقل اضحاكاً عن شعره الهازل بل لعلها تفوقه فكاهةً ودعابةً، وقد سلك في حكاياته تلك ذات المسلك الذي رأينا في شعره من التباله والتحامق وسرد البدهيات بأسلوب جدي .

ويقدم لنا ابن سودون في تلك القصص والطرف صورة ساخرة لبعض علماء عصره من أذعياء المعرفة الذين لم يكن لهم حظ من العلم إلا قدرتهم على تعريف الشيء المعروف وتفسير الماء بعد الجهد بالماء، فما هو ذا ابن سودون يستعير منطق العلماء وطرق استدلالهم ليشرح الفرق بين الفرس والمركب فيقول: «إن من عرف العلم بتحقيقه، وانعجنت فكرته بدقيقه، علم أن بين المركب والفرس فروق من كم وش (وجه). الفرق الأول: أن المركب أثقل من الفرس، بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها، ولو حملوا المركب على فرس ما تقدر تحملها.

الفرق الثاني: أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت رأسها عند رأس المركب لا يصل ذنبها إلى ذنب المركب وأيضاً فإن المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وإيش ما خطر له، بخلاف الفرس،

وأيضاً فإن المركب ينام على ظهرها واحد، وعشرة وأكثر. وظهر الفرس ما هي كده.

وأيضاً فلفظ فرس: (ف - ر - س)، ولفظ مركب: (م - ر - ك - ب)، فمركب أزيد بحرف، والزائد أكبر من الناقص.

الفرق الثالث: أن الفرس لها سمع وبصر، تسمع من صاحبها إيش ما قاله لها، وتبصر كيف تحط رجلها، والمركب ما هي كده.

الفرق الرابع: أن الفرس لها أربع قوائم تندار بهم إن خطر لها من هون لهون، والمراكب ما هي كده. ولا يرد على هذا الصندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوائم ولا يندار، لأن الكلام فيما يُركب والسرير وإن كان يُركب إلا أنه لا يُركب للسفر، والكلام فيما يركب للسفر.

الفرق الخامس: أن بطن المركب مغرفة في الميه، وبطن الفرس مسيبة، إلى غير ذلك من الأفرق».

وفي مكان آخر من ديوانه يخبرنا ابن سودون عن رجل جاء يستفتيه من الأحجية البيزنطية الشهيرة: أيهما سبق الآخر في الخلق والتكوين: البيضة أم الدجاجة؟ فأفتاه على هذا النحو:

«لا نَقَلْ عندي في هذه المسألة، والأمران محتملان، والأظهر أن الدجاجة كانت أولاً ثم باضت وحصل التناسل، ومما يؤيده الحدوته المشهورة وهي: أحدثك حدوته، بالزيت ملتوته، كان ما كان، في قديم الزمان، أولاد حمدان يطلبوا نانا، والنانا في التنور، والتنور - يريد له حطب، والحطب في الجبل، والجبل يريد له فاس، والفاس عند الحداد، والحداد يريد له بيضة، والبيضة في الدجاجة، والدجاجة تريد لها لقط، واللقط في الحظيرة، والحظيرة تريد لها مفتاح، والمفتاح عند رباح، ما يجي من الساعة لثق الصباح. فقال: «... والبيضة في

الدجاجة» ولم يقل الدجاجة في البيضة، ولا يختص هذا بالدجاجة، بل  
الوزة كذلك أيضاً.

ويطول بنا الحديث إذا أردنا أن نستعرض كل ما في ديوان ابن  
سودون من هزلٍ ودعابة، فهو بحقٍ كما وصفه الدكتور شوقي ضيف  
«جعبة فكاهة، فأينما قلبت طرفك في ديوانه اندفعت تضحك<sup>(١)</sup>». وحسبه أنه تربع على عرش الشعر الهزلي ليكون عن جدارة واستحقاق  
إمام الشعراء الهازلين.

---

(١) د. شوقي ضيف: مرجع سابق، ص ٩٩.

## أبو العيْناء والنكته اللاذعة

قد يباغت المرء بحديث غرضه التندر عليه، والسخرية منه، فإذا كان المخاطب حاد الطبع فإنه سيردّ على المتكلم بالسباب والشتائم، وربما استعمل قبضته لتأديب هذا العابث المتحرش.

أما إذا كان المخاطب ممن وهبوا سرعة البديهة، وحضور النكته، وظرف الجواب، فإنه سيفاجئ المتحرش الهازئ برداً أشدّ تندرأً وأمضى سخرية، وأكثر استهزاءً، فترتد السخرية على المتحرش الهازئ الذي تلجمه المفاجأة، ويتمنى لو لم يعث مع من يفوقه سخريةً ودعابةً.

ويُعتبر هذا الأسلوب في التخلص الفكاهة، والردّ المناسب باباً من أبواب الفكاهة، ومذهباً قائماً بذاته في الهزل والإضحاك، وهو بلا شك من أظرف فنون الكفاهة وأصعبها، إذ يتطلب ذكاءً وظرفاً وسرعة بديهة، وهي خلال يندر أن تجتمع في شخص واحد.

وقد اشتهر بهذا المذهب الفكاهة عدد من ظرفاء العرب أمثال أبي الحارث جُمّين، وأبي نواس، والشّعبي.

بيد أن هناك ظريفاً تفرّد في هذا الباب وبرع في الرد الساخر الفكاهة، حتى طار صيته، ولمع نجمه بين وجوه الفكاهة وأعلام الظرف.

وظريفنا الذي نعنيه هو محمد بن القاسم بن خلّاد بن ياسر بن

سليمان اليمامي الهاشمي المعروف بأبي العيّناء (١٩١-٢٨٣هـ)<sup>(١)</sup> وأبو العيّناء هذا ظريف من ظرفاء بغداد، أصله من اليمامة، ومولده بالأهواز، ومنشؤه بالبصرة، وبها كتب الحديث وطلب الأدب، ثم انتقل إلى بغداد حيث عاش فيها شطراً من عمره، ومن ثم عاد إلى البصرة ومات فيها. يصفه الرواة بأنه كاتب وشاعر<sup>(٢)</sup> «حسن الشعر، جيد العارضة، مليح الكتابة والترسل<sup>(٣)</sup>».

لكننا لم نقف على أيّ كتاب نشري أو ديوان شعري منسوب لأبي العيّناء يؤيد ذلك الوصف، فكل ما أمكننا الظفر به أبيات شعرية مشورة هنا وهناك على صفحات كتب الأدب التراثية. إذ إن شهرة أبي العيّناء الحقيقية قامت في ميدان آخر ألا وهو الظرف والفكاهة. إذ كان أبو العيّناء - كما وصفه البغدادي - «من أحفظ الناس، وأفصحهم لساناً، وأسرعهم جواباً، وأحضرهم نادرة<sup>(٤)</sup>» «وفيه من اللّسن وسرعة الجواب والذكاء ما لم يكن في أحد من نظرائه» على حدّ تعبير ابن خلكان<sup>(٥)</sup> فكيف إذا اجتمعت تلك الصفات مع خبث اللسان وبذاءة الكلام وقسوة العبارة؟

ولك أن تتخيل ماذا تفعل تلك الخلال الفريدة، وأي نوع من الدعابة تصنع!!

(١) أصل كنيته تلك أنه سأل سعيد بن أوس الأنصاري: «كيف تُصغّر عيناؤ؟» فقال: عُينا يا أبا العيّناء. فلزمته تلك الكنية مذ ذاك.

انظر: - تاريخ بغداد: ١٧٢/٣ - وفيات الأعيان: ٤٣٨/٤.

(٢) الفهرست لابن النديم: ص ١٧٥.

(٣) لسان الميزان: ٣٤٦/٥.

(٤) تاريخ بغداد: ١٧٠/٣.

(٥) وفيات الأعيان: ٣٤٣/٤.

والمتمأمل في أخبار أبي العيناء يجدها تقوم على ركنين اثنين هما:  
سلطة اللسان وحضور الجواب. جلُّ أخبار أبي العيناء أجوبة ساخرة لاذعة  
تولد في ساعتها رداً على تحرشٍ عابث، أو استهزاءٍ ساخر، فقد عرف أبو  
العيناء كيف يحوّل كلامه إلى سياط تهوي علي ظهور الناس بلا رحمة.  
والحق أن أبا العيناء لم يكن يسلّط لسانه إلا على من يتعرض له  
بإساءة أو تجريح، فإذا تجرّأ على هذا شخص فالويل له من سلطة لسانه  
وفحش كلامه. وقد سأله المتوكل يوماً: إلى كم تمدح الناس وتذمهم؟  
فقال: ما دام المحسن يحسن، والمسيء يسيء.

والحديث عن المتوكل يجرّنا إلى الحديث عن حياة أبي العيناء وما  
آل إليه أمره من منزلة رفيعة في مجلس المتوكل، فقد أعجب هذا  
الخليفة العباسي بظرف أبي العيناء، وأخذ ببديهته الحاضرة وفصاحته  
الساحرة، فقرّبه إليه واتخذه نديماً مقرباً، وجليساً دائماً. وللمتوكل مع  
أبي العيناء حكاية طريفة ذكرها أصحاب المصنفات الأدبية. فقد طار  
صيت أبي العيناء في الظرف والبلاغة حتى طرق مسامع المتوكل، فاشتاق  
إلى رؤيته وسماع كلامه، فأرسل رسله إليه تدعوه إلى الحضور، ولما  
حضر ومثل بين يديه قال له المتوكل: كنت أشتهي منادمتك لولا أنك  
ضيرير البصر. فقال أبو العيناء: إن أعفاني أمير المؤمنين من قراءة نقش  
الفصوص ورؤية الأهلة فأنا أصلح للمنادمة.

فضحك المتوكل واتخذه نديماً.

وقد كُفَّ بصر أبي العيناء بعد أن بلغ الأربعين، وكان قبل العمى  
أحول، وفي ذلك يقول أبو العيناء عن نفسه:

حمدتُ إلهي إذ بلاني بحبها      على حَوْلٍ يُغني عن النظر الشزر  
نظرتُ إليها والرقيب يظنني      نظرتُ إليه فاسترحْتُ من العذر

ثم ابتلاه الله بفقد البصر على كبر من السن، وقد سأله أحمد بن أبي  
دؤاد: ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك؟ قال: أبدأ بالسلام، وكنت  
أحب أن أكون أنا المُبتدئ، وأحدثُ من لا يُقبلُ على حديثي، ولو رأته  
لم أُقبلُ عليه. فقال له أبو دؤاد: أما من بدأك بالسلام فقد كافأته بجميل  
نيتك له، ومن أعرض عن حديثك إنما أكسب نفسه من سوء الأدب أكثر  
مما نالك من سوء الاستماع. فأنشد أبو العيناء:

إن يأخذ الله من عيني نورَهُما      ففي لساني وسمعي منهما نورُ  
قلبٌ ذكيٌّ ومهقلٌ غيرُ ذي خَطَلٍ      وفي فمي صارمٌ كالسيف مشهورُ  
وأخبار أبي العيناء، أو قل إن شئت: أجوبته اللاذعة كثيرة تفيض بها  
كتب الأدب، إذ يندر أن يخلو كتاب أدبي تراثي من بعض نوادر أبي  
العيناء وأجوبته الساخرة التي أضحكت الناس وشغلت الرواة.

وينسب ابن النديم لأبي العيناء كتابين هما: «كتاب أخبار أبي  
العيناء: عمله ابن أبي طاهر، وكتاب شعر أبي العيناء نحوًا من ثلاثين  
ورقة<sup>(١)</sup>».

لكن الكتابين لم يصلنا إلينا، ولذلك فقد جمعنا نوادر أبي العيناء من  
بطون المصنّفات الأدبية وعلى رأسها: زهر الآداب وثمر الألباب  
للحصري، والديارات للشابستي، ونثر الدر للآبي، والبصائر والذخائر  
للتوحيدي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ونكت الهميان في نكت  
العميان للصفدي.

### سياط أبي العيناء:

- قال أبو علي البصري لأبي العيناء: إني ولدتُ قبل طلوع الشمس

(١) الفهرست لابن النديم: ص ١٧٥.



بيسير. فقال: فلذلك كنت شحاذاً سائلاً لأنه وقت انتشار السؤال.

- حضر أبو العيناء مجلس بعض الوزراء، فتعارضوا حديث بعض البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجود، فقال الوزير لأبي العيناء - وقد كان أمعن في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والإفضال-: قد أكثرت من ذكرهم ووصفك إيّاهم، وإنما هذا من تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين. فقال له أبو العيناء: فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير بالبذل والجود؟

- مرّ أبو العيناء يوماً بباب عبد الله بن منصور - وكان يكرهه - وكان عبد الله مريضاً. وقد صحّ، فسأل أبو العيناء غلامه: كيف خبره؟ فقال: كما تحب. فقال أبو العيناء: مالي لا أسمع الصراخ عليه؟

- دخل أبو العيناء على عبيد الله بن سليمان الوزير، وبين يديه شطرنج يلعب به مع بعض أولاده، فقال له عبيد الله: مع أيّ الحزبين تريد أن تكون؟ قال: معك. فلم يكن بأسرع من أن قال: قد غلبنا ولزمك من القمار عشرون رطلاً من الثلج. قال: أحضره أيها الأمير، ولكن تأذن لي أن أمضي إلى داري أوصيهم بما أحتاج إليه حتى يدرك الطعام، وأوافيك بالثلج. فقال: امض ولا تتأخر. فركب حماره ومضى لأبي العباس بن ثوابة فقال له: الأمير يدعوك الساعة. فلبس ابن ثوابة ثيابه، وركب دابته وصار معه أبو العيناء، فما شعر عبيد الله إلا بأبي العيناء مع ابن ثوابة قد وافى، فسرّ بذلك، فقال أبو العيناء: كلّفونا أربعين رطلاً من الثلج، وقد جئتك بثلج فذاب كلّه، فخذ منه ما شئت. فضحك عبيد الله حتى استلقى.

- مرّ أبو العيناء يوماً بدرّب بسرّ من رأى، فقال له غلامه: إنّ بالدرب جملاً سميناً، وليس معه أحد. فقال: خذه. فأخذه وسار به إلى

منزله . فلما كان من الغد جاءتة رقعة من بعض الرؤساء الساكنين في ذلك  
الدرب مكتوب فيها: جعلت فداك، ضاع لنا بالأمس جمل، فأخبرني  
بعض صبيان الزقاق أنك أخذته، فاردده متفضلاً. فكتب إليه: سبحان  
الله!! مشايخ عندنا يزعمون أنك عظيم فلم أقبل قولهم ولا صدقتهم،  
وتصدق أنت صبياً من صبيان دربك؟

- دق إنسان على أبي العيناء الباب، فقال: مَنْ هذا؟ قال: أنا. فقال  
أبو العيناء: أنا والدقُّ سواء.

- اجتمع أبو هِفَّان وأبو العيناء على مائدة، فقُدِّمت إليهم فالوذجة<sup>(١)</sup>  
فقال أبو هِفَّان لأبي العيناء: هذه والله أشدُّ حراً من مكانك في لظى. فقال  
أبو العيناء: برَّدها الله بشعرك.

- قال ابن الجَمَّاز المغني لأبي العيناء: هل تذكر سالف معاشرتنا؟  
فقال أبو العيناء: إذ تُغَنِّينا ونحن نستعفيك؟

- زاحم رجلٌ أبا العيناء في الطريق، والرجل راكبٌ على حمار،  
فضرب أبو العيناء على أذن الحمار وقال: يا فتى، قل للحمار الذي فوقك  
يقول للناس: افسحوا الطريق.

- خاصم أبو العيناء عَلَوياً، فقال له العلوي: أتخاصمني وأنت تقول  
كل يوم: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد؟ فأجابه أبو العيناء  
بقوله: لكني أقول: الطَّيِّبين الطاهرين، ولست منهم.

قالت قَيْنَةُ<sup>(٢)</sup> لأبي العيناء يوماً: يا أعمى. فقال لها: ما أستعين على  
وجهك بشيء أصلح من العمى.

(١) الفالوذج: حلواء تُعمل من الدقيق والماء والعسل.

(٢) القَيْنَةُ: الأمة، وغلب على المُغَنِّية.

- قال أبو العيناء: أنا أول من أظهر العقوق بالبصرة، قال لي أبي: يا بني، إن الله قرن طاعته بطاعتي، فقال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤].

فقلت: يا أبتِ إنَّ الله ائتمني عليك ولم يَأتمنك عليَّ فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً إِمْلَاقٌ﴾ [الاسراء: ٣١].

- مرَّ أبو العيناء بموسى بن المتوكل، فقال له: انزل على ما حضر. فقدَّم له صفحة بلحم وخبزاً، فأدخل أبو العيناء يده، فقلبها، فما وقعت يده إلا على عظم، فقال: يا سيدي، هذه صفحة أم قبر؟؟ فضحك موسى، وأمر له بإحضار شيء آخر.

- داعب ابن المرزبان أبا العيناء فقال له: لمَ لبست جبَّاعة؟ فقال أبو العيناء: وما الجبَّاعة؟ قال: التي بين الجبَّة والدرَّاعة. فقال أبو العيناء: ولمَ أنت صفيديم؟ قال ابن المرزبان: وما صفيديم؟ قال: الذي بين الصفعان والنديم.

- قال الجمَّاز لأبي العيناء: كيف ترى غنائي؟ فقال: كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

- شكى أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر، فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية. فقال أبو العيناء: ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد.

- قال له جناح بن سلمة يوماً: ما ظهورك وقد خرج توقيع أمير المؤمنين في الزنادقة؟ فقال له: أَسْتَدْفِعُ الله عنك وعن أصهارك.

- دعا أبو العيناء سائلاً لِيُعَشِّيَهُ، فلم يدع شيئاً إلا أكله، فقال له: يا هذا، دعوتك رحمة فاترُكني رحمة.

- وقف عليه رجلٌ من العامة، فلما أحسَّ به قال: مَنْ هذا؟ قال: رجل من بني آدم. قال أبو العيناء: مرحباً بك، أطلال الله بقاءك، ما كنت أظن هذا النسل إلا قد انقطع.

- أدخل على المتوكل رجل قد تنبأ<sup>(١)</sup>، فقال له: ما علامة نبوتك؟ قال: أن يدفع إلي أحدكم امرأته فاني أحبها في الحال: فقال المتوكل: يا أبا العيناء، هل لك أن تعطيه بعض الأهل؟ فقال أبو العيناء: إنما يعطيه من كفر به. فضحك وخلاه.

- قال أبو العيناء لصاعد بن مخلد: أنت خير من رسول الله ﷺ. فقال: ويلك!! كيف؟ قال: إن الله تعالى قال له: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَاقْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾<sup>(٢)</sup> وأنت فظ ولسنا ننفض!!

- وعده ابن المدبر بدابة، فلما طالبه بها قال: أخاف أن أحملك فتقطعني ولا أراك. فقال: عدني أن تضم إليه حماراً آخر لأواظب مقتضياً.

- قدم صديق له من بعض الأعمال السلطانية، فدعاه إلى منزله وأطعمه، وجعل الرجل يكثر الكذب، فالتفت أبو العيناء إلى من كان معه فقال: نحن كما قال الله تعالى: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّحْتِ﴾<sup>(٣)</sup>.

- قال أبو العيناء: كان سبب خروجي من البصرة وانتقالي عنها أنني مررت بسوق النخاسين يوماً، فرأيت غلاماً يُنادى عليه بثلاثين ديناراً، وهو يساوي ثلاثمائة دينار، فاشتريته، وكنْتُ أبني داراً، فدفعت إليه عشرين ديناراً على أن ينفقها على الصنَّاع. فجاءني بعد أيام يسيرة فقال:

(١) أي أدعى النبوة.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) المائدة: ٤٢.

قد نفدت النفقة. قلت: هات حسابك. فرفع حساباً بعشرة دنانير، فقلت: فأين الباقي؟ قال: اشتريت به ثوباً. قلت: ومن أمرك بهذا؟ قال: يا مولاي، لا تعجل فإنَّ أهل المروءات والأقذار لا يعتبرون على غلمانهم إذا فعلوا فعلاً يعود بالزين على مواليتهم. فقلت في نفسي: أنا اشتريت الأصمعي ولم أعلم. قال: وكانت في نفسي امرأة أردت أن أتزوجها سرّاً من بنت عمي، فقلت له يوماً: أفيك خير؟ قال: أي لعمرتي. فأطلعته على الخبر، فقال: أنا نعم العون لك. فتزوجتُ واستكتمتُ، ودفعت إليه ديناراً وقلت له: اشتر لنا كذا وكذا ويكون فيما تشتريه سمك هازبي<sup>(١)</sup>.

فمضى ورجع وقد اشترى ما أردت إلا أنه اشترى سمكاً مارماهي<sup>(٢)</sup>، فغاظني، فقلت: أليس أمرتك أن تشتري هازبي؟ قال: بلى، ولكنني رأيت بقراط<sup>(٣)</sup> يقول: إنَّ الهازبي يولد السوداء، ويصف المارماهي ويقول: إنه أقل عائلة. فقلت: يا ابن الفاعلة، لم أعلم أنني اشتريت جالينوس<sup>(٤)</sup>.

وقمت إليه وضربته عشر مَقَارِع<sup>(٥)</sup>، فلما فرغت من ضربه أخذ المقرعة وضربني سبع مقارع وقال: يا مولاي، الأدب ثلاث، والسبع فضل، ولذلك قصاص، فضربتك هذه السبع خوفاً عليك من القصاص يوم القيامة. فغاظني جداً، فرميته فشججته، فمضى من وقته إلى ابنة عمي فقال لها: يا مولاتي، الدين النصيحة، وقد قال النبي ﷺ: «من

(١) الهازبي: نوع من السمك.

(٢) نوع آخر من السمك.

(٣) طيب يوناني.

(٤) طيب يوناني.

(٥) المَقَارِع: جمع مِقْرَعَة، وهي السوط.

غشنا فليس منا» وأنا أعلمك أن مولاي قد تزوج واستكتمني، فلما قلت له: لا بد من إعلام مولاتي، ضربني بالمقارع وشجني.

فمنعتني بنت عمي من دخول الدار، وحالت بيني وبين ما فيها، فلم أر الأمر يصلح إلا بأن طَلَّقت المرأة التي تزوجتها، فصلح أمري مع ابنة عمي، وسَمَّته ابنة عمي «الغلام الناصح» فلم يتهيأ لي أن أكلمه، فقلت: أعتقه وأستريح، لعله أن يمضي عني. فلما أعتقته لزمني وقال: الآن وجب حَقك عليّ.

ثم أنه أراد الحج. فزودته وجهازته، فخرج وغاب عني عشرين يوماً ثم رجع، فقلت له: لِمَ رجعت؟ قال: قُطِعَ الطريق، وفكرتُ فإذا الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾<sup>(١)</sup> وكنت غير مستطيع، وفكرت فإذا حَقك عليّ أوجب، فرجعت.

ثم أراد الغزو فجهَّزته، فلما غاب عني بعث كلاً ما أملكه بالبصرة وخرجت منها خوفاً أن يرجع.

- قالت قَيْنَةُ لأبي العيناء: هب لي خاتمك أذكرك به. فقال: اذكريني بالمنع.

- وقال يوماً لابن ثوابة: يحتاج عقلك إلى صمت يستره، ونطقك إلى عقلٍ يسدِّده.

- وعده أبو الصقر شيئاً، وقال له: غداً، فقال أبو العيناء: إن الدهر كلُّه غد، فهل عندك موعد مخلى من المقاريض؟

- سأله المتوكل عن ميمون بن إبراهيم صاحب البريد فقال: يد تسرق، واست تضرط، مثله مثل يهودي سرق نصف جزيته، فله إقدامٌ بما

(١) آل عمران: ٩٧.

أدى، وإحجامٌ بما أبقى، إساءته عمدٌ، وإحسانه تكلف.

- وكان أبو العيناء في مجلس وإلى جنبه مغنٍ بارد، فأقبل على أبي العيناء وقال: يا سيدي، كم بيننا وبين الشتاء؟ قال: هذه المسورة<sup>(١)</sup>.

- وقال لرجل: والله ما فيك من العقل شيء إلا مقدار ما تجبُّ به الحجة عليك، والنار لك.

- قال له الكافي: كيف أكتب «اللؤم» بلام أو لامين؟ فقال: صور نفسك.

- ذكر أبو العيناء ولد موسى بن عيسى، وكانت أنوفهم كباراً معوجة، فقال: كأن أنوفهم قبورٌ نُصِبَتْ على غير القبلة.

- ذمَّ أبو العيناء رجلاً فقال: له ضحك كالبكاء، وتودّد كالسباب والافتراء، ونوادر كندب الموتى.

- كان في بني الجراح فتى خليع ماجن، فأراد العبث بأبي العيناء، فنهاء نُصَّاحه، فأبى، فقالوا له: شأنك، فقال له: يا أبا العيناء، متى أسلمت؟ قال: حين كفر أهلك وأبوك الذين لم يؤدبوك، فقال له الفتى: إذن فقد علمت أنك ما أسلمت. فقال أبو العيناء: شهادتك لأهلك دعوى، وشهادتي عليهم بلوى، وستعلم أي السلطانيين أقوى، وأي الشيطانين أغوى، وسيعلم أهلك ما جنى عليهم جهلك.

- دخل أبو العيناء على بعض الرؤساء بكرةً، فاستسقى ماء، فقال له الرجل: أفي هذا الوقت تعطش؟ قال أبو العيناء: أصلحك الله، هذا أمان لك من الغداء.

- سأل أبو العيناء إبراهيم بن ميمون حاجةً، فاعتذر إليه وحلف أنه

(١) المسورة: وسادة يتكأ عليها.

صديق في اعتذاره، فقال: من كان الصدق حرمان صديقه ماذا يكون كذبه؟

- حمله بعض الوزراء على دابة، فانتظر علفها، فلما أبطأ عليه قال أبو العيناء: أيها الوزير، هذه الدابة حَمَلَتْنِي عَلَيْهَا أَوْ حَمَلَتْهَا عَلَيَّ؟

- سأل أبو العيناء صاعد بن مخلد كتاباً يكتبه إلى مصر، فجعل يقول: إلى مصر يا أبا العيناء!! إلى مصر!! فقال: وما استبعادك، أعزك الله، إلى مصر؟ والله لما في صناديقك أبعد عليّ ممّا في مصر.

- قيل لأبي العيناء: لم أتخذت خصياً أسود؟ فقال: أما الأسود فلثلا أتهم به، وأما الخصي فلثلا يُتهم بي.

- قال بعض الرؤساء لأبي العيناء: يا أبا العيناء لو متّ لرقص الناس طرباً، فقال:

أردتَ مَدَمَّتِي فَأَجَدتَ مَدْحِي      بِحَمْدِ اللَّهِ ذَلِكَ لَا بِحَمْدِكَ  
فَلَا تُكْ وَائْتِئاً أَبَدًا بَعْمِدِ      فَقَدْ يَأْتِي الْقَضَاءُ بِضِدِّ عَمْدِكَ.

أجل، الناس قد ذهبوا، فلو رأني الموتى لطرَبوا، فما زالوا يغبطونكم بي ويرحمونني بكم.

- أكل أبو العيناء يوماً عند بعض أصحابه، وغسل يده عشر مرات فلم تَنَقَّ، فقال: كادت هذه القدور أن تكون نسباً وصهراً.

- وعد رجل أبا العيناء دابة فأخَرَهَا، فكتب إليه: إن كانت الدابة التي وعدتني بها دابة الأرض فقد مضى خبرها مع منسأة سليمان، وإن كانت دابة الصفا انتظرنا خبرها مع سابق الحاج، وإن كانت من دواب الدنيا فقد جاز عُمُرُ وعدك عُمُرَ الدواب، فهَيِّئْ لي غيرها، وإن كانت دابة



تدفعها إليَّ في الآخرة فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (١).

- التقى أبو العيناء والجاحظ في مجلس الحسن بن وهب، فقال الجاحظ مقابلاً بين اسمي الرجلين وكنيتيهما ولقبيهما: علمت أن محمد ابن القاسم أحسن من عمرو بن بحر، وأنَّ أبا عبد الله أحسن من أبي عثمان، ولكن الجاحظ أحسن من أبي العيناء. فقال أبو العيناء: هيهات، جئت إلى ما يخفى من أمورنا ففضلتني عليك فيه، وإلى ما يُعرف، ففضلت نفسك فيه. إنَّ أبا العيناء يدلُّ على كنية، والجاحظ يدلُّ على عاهة، والكنية، وإن سمجت أصلح من العاهة وإن ملحت.

- قال أبو العيناء: كان لي صديق، فجاءني يوماً فقال: أريد الخروج إلى فلان العامل، وأحببت أن يكون معي وسيلة، وقد سألت: مَنْ صديقه؟ فقبل لي: أبو عثمان الجاحظ، وهو صديقك، وأحب أن تأخذ لي كتابه إليه بالعناية.

قال: فصرت إلى الجاحظ، فقال لي: في أيِّ شيء جاء أبو عبد الله؟ فقلت: مسلماً وقاضياً للحق وفي حاجة لبعض أصدقائي وهي كذا وكذا. قال: لا تشغلنا الساعة عن المحادثة، وتعرف أخبارنا، فإني في غدٍ أوجّه إليك بالكتاب. فلما كان من الغد وجّه إليَّ بالكتاب مختوماً، فقلت لابني: وجّه هذا الكتاب إلى فلان ففيه حاجته. فقال لي: إنَّ أبا عثمان بعيد الغور، فينبغي أن تفضّه وتنظر ما فيه. ففعل، فإذا في الكتاب: «كتابي إليك مع مَنْ لا أعرفه، وقد كلّمني فيه مَنْ لا أوجب حقّه، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك».

(١) عبس: ٣٧.

فلما قرأت الكتاب مضيت من فوري إلى الجاحظ، فقال: يا أبا عبد الله، قد علمت أنك أنكرت ما في الكتاب. فقلت: أوليس موضع نكرة؟ فقال: لا، هذه علامةٌ بيني وبين الرجل فيمن أعنتني به. فقلت: سبحان الله!! ما رأيت رجلاً أعلم بطبعك وما جُبلت عليه من هذا الرجل [يقصد صاحب الحاجة]، أعلمت أنه لما قرأ الكتاب قال: أمُّ الجاحظ عشرة آلاف في عشرة آلاف قحبة، وأمُّ مَنْ يسأله حاجة. فقلتُ له: يا هذا أتشتم صديقنا؟ فقال: هذه علامتي فيمن أشكره.

- دخل أبو العيناء يوماً إلى محمد بن عبد الملك الزيات فلم يرفع طرفه إليه ولا كلمه، فقال: إنَّ من حقِّ نعمة الله عليك لمَّا أهلك له في الحال التي أنت عليها أن تجعل البسطة لأهل الحاجة إليك خُلُقاً، فإنَّ مَنْ أوحش انقبض عن المسألة، وبكثرة السؤال مع النجح يدوم السرور، وبقضاء الحاجات تدوم النعم. فقال له محمد: إني أعرفك فضولياً كثير الكلام، تُرى إنَّ طول لسانك يمنع من تأديبك إذ زللت؟ وأمر به إلى الحبس. فكتب إليه أبو العيناء من الحبس: قد علمت أنَّ الحبس لم يكن لذنوب تقدم إليك، ولكن أحببت أن تُريني قدرتك عليّ، لأنَّ كلَّ جديد يُستلذ، ولا بأس أن تُرينا من عفوك ما أرينا من قدرتك. فأمر بإطلاقه، فلقية بعد مدة طويلة على الطريق، فحبس محمد دابته وقال: ما أراك أبا عبد الله تواصلنا بحسب إنجائنا لك!! فقال أبو العيناء: أمَّا المعرفة بعنايتك فمتأكدة، ولكنني أحسب الذي جدَّد استبطاءك لي فراغ حبسك ممّن فيه، فأردت أن تعمّره بي.

### بين أبي العيناء ومحمد بن مُكْرَم:

وقد وقع بين أبي العيناء وبعض معاصريه من الأدباء والشعراء وعلية

القوم مهاترات وملاسنات لا تخلو من الفكاهة، ولعل أكثرها طرافةً وأشدّها حدّةً تلك التي أصابت محمد بن مكرم<sup>(١)</sup>، إذ كان يروق لظريفنا أبي العيناء أن يتحرّش بابن مكرم ويرميه بقارص الكلام.

ومن جهته، لم يقصّر ابن مكرم في الردّ على أبي العيناء بالمثل، وربما تجاوز الطرفان - في بعض الأحيان - حدود اللياقة والأدب إلى اللوغ في مهاترات بذیئة، وكلمات جارحة يخال المرء معها أن بين الرجلين عداوة مستحكمة وكراهية متبادلة، والأمر بخلاف ذلك، إذ كان الواحد منهما يتقبّل دعابة الآخر - أو بعبارة أوضح: سخرية الآخر - بروح رياضية، ومن ثم يرد له الصاع صاعين وزيادة، كل ذلك في جوّ من الظرف لا مكان فيه للحقد أو الضغينة.

وإليك بعض هذه الملاسنات اللاذعة:

- قدم محمد بن مكرم من الجبل، فقال له أبو العيناء: ما لك لم تُهدِ إلينا شيئاً؟ فقال ابن مكرم: والله ما قدِمْتُ إلا في خَف. قال: كذبت، ولو قدمت في خَفٍ لخَفَّت روحك.

وأكثر عليه أبو العيناء من المهاترة، فقال ابن مكرم: إن زدت عليّ قمت. قال أبو العيناء: أراك تتهدّدنا بالعافية!!؟

- وُلِدَ لأبي العيناء ولد، فأتى ابن مكرم فسَلَّم عليه، ووضع حجراً بين يديه وانصرف فأحسّ به، فقال: مَنْ وضع هذا الحجر؟ قيل له: ابن مكرم. قال: لعنه الله، إنما عرض لقول النبي ﷺ: «الولد للفراش

(١) لا نعرف الكثير عن حياة محمد بن مكرم هذا. وقد ذكر له الحافظ البغدادي ترجمةً بسيرة يُستفاد منها أنه عاش ببغداد، وتوفي سنة ٢٣١هـ. وهذا أقصى ما يمكننا ذكره هنا.

انظر: تاريخ بغداد: ٣/٣٠٠.

وللعاهر الحجر» .

- كتب ابن مكرم إلى أبي العيناء:

عندي سكباج<sup>(١)</sup> تُرعب المجنون، وحديث يطرب المحزون، فلا تعلق عليّ وأتون. فأجابه أبو العيناء: «اخشؤوا فيها ولا تُكَلِّمُون»<sup>(٢)</sup>.

- قال ابن مكرم: مذهبي الجمع بين الصلاتين. قال أبو العيناء: صدقت، ولكن تجمع بينهما بالترك.

- وقال ابن مكرم لأبي العيناء: أحسبك لا تصوم رمضان. فقال: ويحك!! وتدعني امرأتك أصوم!؟

- بات أبو العيناء ليلةً عند ابن مكرم، فجعل ابن مكرم يفسو عليه، فقام أبو العيناء وصعد السرير، فارتفع إليه فساؤه، فصعد إلى السطح، فبلغته رائحته، فقال: يا بن الفاعلة!! ما فساؤك إلا دعوة مظلوم!!

- قال أبو العيناء: كان أبي يحبني. فقال ابن مكرم: كان أبوك يحب الخراء. قال أبو العيناء: فلو رآك إذن للطَّعَكَ<sup>(٣)</sup>.

- قال ابن مكرم: ما أحد أعقل من مغنية تأكل وتشرب وتتلذذ وتأخذ دراهم. فقال له أبو العيناء: فكيف عقل الوالدة حفظها الله؟

- كان ابن مكرم وأبو العيناء يشربان يوماً عند صديق لهما، فقال ابن مكرم لصاحب الدار: أقوم إلى الخلاء. فقال أبو العيناء: إذن لا يعود إلينا منك شيء.

- قيل لأبي العيناء: ما تقول في محمد بن مكرم والعباس بن رستم؟

(١) السَّكْبَاجُ: طعام يُعمل من اللحم والخل.

(٢) المؤمنون: ١٠٨.

(٣) لَطَّعَكَ: لحسك.

فقال: هما الخمر والميسر، إثمهما أكبر من نفعهما.

## بين أبي العيناء والمتوكل:

حظي أبو العيناء بمكانة فريدة في قصر المتوكل، إذ كان النديم الأثير، والجليلين المُقَرَّب الذي لا يُحجب، وكانت له معه أخبار ومحاورات ولكن لكل مقام مقال، فهو بين يدي الخليفة رجل حكيم، وأديب بليغ، يُنمِّقُ كلامه، ويحسن أخلاقه، فإذا نحن أمام رجلٍ آخر لا يمتُّ بصلة إلى ذاك الفحَّاش السليط.

ربما نجح أبو العيناء في تكلف الحشمة حيناً أو أحياناً، ولكن أترأه يصبر على ذاك التأدب المصطنع؟؟

لا جرم أنك ستكتشف الجواب بنفسك، وإليك الآن هذه الصورة المختلفة لأبي العيناء، ومن ثم نختم الفقرة بنادرةٍ تعيدنا دفعة واحدة إلى أبي العيناء الحقيقي:

- قال المتوكل لأبي العيناء: قد أردت لك لمجالستي. فقال أبو العيناء: لا أطيق ذاك، وما أقول ذلك جهلاً بما لي في هذا المجلس من الشرف، ولكنني محجوب<sup>(١)</sup> والمحجوب تختلف عليه الإشارة، ويخفى عليه الإيماء، ويجوز أن تتكلم بكلام غضبان ووجهك راضٍ، أو بكلام راضٍ ووجهك غضبان، ومتى لم أُميِّز بين هذين هلكت. قال المتوكل: صدقت، ولكن تلزمننا. قال: لزوم الغرض الواجب اللازم. ثم وصل المتوكل أبا العيناء بعشرة آلاف درهم.

- دخل أبو العيناء على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري،

(١) يشير إلى ما ابتلاه الله به من فقد البصر.

فقال له: كيف قولك في دارنا هذه؟ فقال: إنّ الناس بنوا الدور في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك.

- قال المتوكل لأبي العيناء: ما تُحسن؟ قال: أفهمهم وأفهم، وآخذ من المجلس ما حوى، فمرة أغلب ومرة أغلب.

- قال المتوكل لأبي العيناء: أكان أبوك مثلك في البيان؟ قال: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته لرأيتَ والله عبداً لك لا ترضاني أكون عبداً له.

- وقال له أيضاً: ما أشدّ ما عليك في ذهاب بصرِك؟ قال: ما حرمته، يا أمير المؤمنين، من رؤيتك، مع إجماع الناس على جمالك.

- وقال له يوماً: بلغني أنك مأبون<sup>(١)</sup>.

فقال له: يا أمير المؤمنين، مولى القوم منهم - وكان أبو العيناء من موالي بني العباس - فقال المتوكل: قاتله الله، أردت أن أشتفي منه فاشتفى مني.

### حسن الجواب:

وقد اشتهر أبو العيناء في زمانه بالبلاغة والفصاحة وقوة السبك وحسن الديباجة، وإذا كانت النوارد السابقة قد أغفلت تلك السمات البلاغيّة، فإن هناك أخباراً أخرى أظهرت ذاك الجانب من شخصية أبي العيناء، ولعل من الإنصاف أن نذكر بعضاً منها حتى لا نظلم الرجل ويكون كلُّ كلامنا عن سلاطة لسانه وسوء أخلاقه:

- قال عبيدُ الله بن يحيى لأبي العيناء: كيف الحال؟ فقال: أنتَ الحال، فإذا صلحت صلحت.

(١) المأبون: المُتهم بعيب أو خلّة سوء.

- دخل أبو العيناء على إسماعيل القاضي، وجعل يردُّ عليه إذا غلط في اسم رجل وكنية آخر، فقال له بعض مَنْ حضر: أتردُّ على القاضي أعزّه الله؟! كأنك أحطت بما لم يُحِط به؟! قال: نعم، لم لا أَرُدُّ على القاضي وقد ردَّ الهدهدُ على سليمان عليه السلام وقال: «أحطتُ بما لم تُحِطُ به»<sup>(١)</sup> وأنا أعلمُ من الهدهد، وسليمان أعلم من القاضي.

- دخل أبو العيناء على الحسن بن سهل، فشكا ضيقته، فأمر له بخمسة آلاف درهم، فقال: أصلح الله الوزير، لا أستقلُّ قليلك، ولا استكثر كثيرك. فقال له: ولم؟ قال: لا أستكثر كثيرك لأنك أكثر منه، ولا أستقل قليلك لأنه أكثر من كثير غيرك. فأعجب بكلامه وقال: اكتبوه وزيدوا خمسة آلاف آخر.

---

(١) النمل: ٢٢.

## مُرَبَّد... الضاحك المضحك

لا أعرف شخصية هزلية نالت من الشهرة والشعبية قدر ما نالته شخصية جحا، ذاك الظريف الهازل الذي أضحكنا جيلاً بعد جيل. وجحا شخصية عجيبة حقاً، فهي تجمع في داخلها كل النقائص: من الحمق والذكاء، والغفلة والفتنة، والمجون والورع، والخبث والطيبة، والمكر والسداجة، حتى يخال المرء أنه أمام عدة شخصيات لا شخصية واحدة، ولعل هذا ما حدا بالبعض إلى الشك في وجود هذه الشخصية، سيما وأنّ البحث العلمي الجاد لم يحسم مسألة وجودها على مسرح التاريخ، فأغلب الظن أنها شخصية خيالية من تلفيق الرواة، أو لعلها حقيقية لكن الخيال الشعبي حملها - عبر العصور - أثقالاً من النوادر والفكاهات. ولا أكتمك - قارئ العزيز - أني كنت أشعر بالضيق كلما تناهى إلى سمعي اسم جحا، فهذه الشخصية الغامضة قد نافست شخصيات هزلية حقيقية من لحم ودم، وزاحمتها على الشهرة والخلود، وكان أولى أن تحظى تلك الشخصيات بمثل تلك العناية، أو بنصفها على أقل تقدير.

ومن بين تلك الشخصيات الهازلة، والوجوه الضاحكة كانت تستوقفني دائماً شخصية مُرَبَّد<sup>(١)</sup>، فهذه الشخصية تلتقي مع جحا بقواسم

(١) مُرَبَّد: هكذا ضبط المحدثون اسمه، انظر: توضيح المشتبه لابن ناصر الدين: ١٢٣/٨. - تبصير المنتبه لابن حجر: ١٢٧٤/٤.



مشتركة كثيرة، حتى أنني كنت استحضر في ذهني صورة جحا كلما مررت  
بنادرة لهذا الوجه الضاحك.

فصاحبنا مُزَبَّد رجل فكه الأخلاق، ظريف الطبع، خفيف الظل،  
حلو المعشر، يكاد الظرف يُعصر من شمائله.

لم يكن مزبد يتصنع المزاح، أو يتكلف الظرف، بل كان يترك نفسه  
على سجيبتها وما جُبلت عليه من ظرفٍ ومرح، ثم ينطلق في شأنه اليومي  
محدثاً هذا ومجالساً ذاك، فإذا بردات فعله العفوية حيال ما يسمع ويرى  
تنقلب إلى نكتة مضحكة، رغم أنه لم يتعمد الإضحاك أو الهزل. وكذلك  
كان جحا.

ولم يتصل مزبد بالخلفاء والأمراء، ولم يختر طريق المنادمة  
والتكسب بالظرف كعادة مجترفي الهزل والإضحاك في زمانه، فقد نأى  
بنفسه عن القصور والدور، ورضي أن يعيش عيشة الكفاف، وهكذا أيضاً  
كانت سيرة جحا.

ولا تطمع - قارئ العزيز - في أن تحصل مني على سيرة مزبد،  
فظريفنا هذا رجل مغمور النسب، مجهول الهوية، لا يأبه أصحاب  
التراجم بأمثاله. وهكذا كان نصيب جحا.

وقد رأيت العقاد يؤلف كتاباً عن جحا سمّاه «جحا الضاحك  
المضحك»<sup>(١)</sup> فقلت في سِرِّي: مُزَبَّد أولى. فظرف مُزَبَّد - في زعمي -

(١) للاستزادة حول شخصية جحا يحسن الرجوع إلى الكتب التالية:

- جحا الضاحك المضحك: عباس محمود العقاد، صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٨٧.
- جحا العربي: شخصيته وفلسفته في الحياة والتعبير: محمد رجب النجار،  
الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة.
- نوار جحا الكبرى: ترجمة حكمت بك شريف، القاهرة: المكتبة التجارية =

يفوق ظرف جحا أضعافاً مضاعفة.

ونوادر مزبد كثيرة، تجدها في نثر الدر للآبي، والبصائر والذخائر للتوحيدي، وفوات الوفيات للكتبي.

وإليك الآن نوادر هذا الظريف التي ستطرب لها دون شك:

- استأذن مزبد على بعض البخلاء وقد أهدى له تين في أول أوامه، فلما أحسَّ البخيل بدخوله تناول الطبق، فوضعه تحت السرير، وبقيت يده معلّقة، ثم قال لمزبد: ما جاء بك في هذا الوقت؟ قال: يا سيدي، مررت الساعة بباب فلان، فسمعت جاريتَه تقرأ لحناً ما سمعتُ قطُّ أحسنَ منه، فلما علمتُ من شدة محبتك للقرآن وسماعك للألحان حفظته وجئت لأقرأه عليك. قال: فهاته. فقلت:

=الكبرى. ويضم هذا الكتاب الأخير المترجم عن التركية الرواية التركية لنوادر جحا التي - ربما - أغنت الرواية العربية وازدادت إليها الكثير. وتجدر الإشارة هنا إلى أن صورة جحا في كتب الأدب تختلف إلى حدٍّ كبير عن تلك التي رسمتها له المخيلة الشعبية، فجحا - في كتب الأدب التراثية - نموذج للحمق وتجسيد للبلاهة. انظر إلى ابن الجوزي وهو يسوق أخبار جحا في كتابه «أخبار الحمقى والمغفلين» مع حمقى العرب وبلهائهم.

ويؤكد ابن النديم تلك الصورة في كتابه «الفهرست» إذ يذكر في باب الكتب المصنفة في أخبار المغفلين والتي لا يُعلم مَنْ ألفها كتاباً اسمه «نوادر جحا». أما الميداني فقد غلا في نسبة الحمق إلى جحا إذ جعله مضرب المثل في البلاهة والغفلة، ألم تقل العرب قديماً «أحمق من جحا؟» (مجمع الأمثال للميداني ١/٢٢٣) في حين تحتفظ المخيلة الشعبية بصورة مختلفة لجحا، فهو تارةً خبيث ماكر، واسع الحيلة، شديد الدهاء، وتارةً أخرى غبيٌّ أحمق لا يفقه من الأمر شيئاً. وهو حيناً جبان رعديد يؤثر السلامة على الندامة، وحيناً آخر جريء صريح لا يهاب مواجهة الحكام. ونحن إنما اتخذنا من صورة جحا الشعبية نموذجاً في تحديد نقاط التشابه والالتقاء مع شخصية مُزَبَّد، فكتب التراث - في رأينا - إنما تتحدث عن جحا آخر غير الذي نعرفه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: «... والزيتون وطور سينين»<sup>(١)</sup>.

فقال: ويلك!! أين التين؟ قلت: تحت السرير.

- نظر يوماً إلى امرأته تصعد في درجة، فقال: أنتِ طالقٌ إن صعدت، وأنتِ طالقٌ إن وقفتِ، وأنتِ طالقٌ، إن نزلتِ. فرمَتْ بنفسها من حيث بلغت، فقال لها: فداك أبي وأمي، إن مات مالك<sup>(٢)</sup> احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم.

- دُفِعَ مرَّةً إلى والي مكة وقد أفطر في شهر رمضان، فقال له الزالي: يا عدوَّ الله، تُفْطِرُ في شهر رمضان، قال: أنتَ أمرتني بذلك. قال: هذا شرٌّ، كيف أمرتكَ ويلك؟ قال: حدَّثتَ عن ابن عباس: أنه مَنْ صامَ يومَ عرفةَ عدَل صومه سنة، وقد صُمتَه.

فضحك الوالي وخلاه.

- نظر مزبد إلى قوم مكتفين يُذهب بهم إلى السجن، فقال: ما قصَّة هؤلاء؟ قالوا: خيرٌ. قال: إن كان خيراً فاكْتَفُونِي معهم.

- طلب منه بعض جيرانه ملعقة، فقال: ليت لنا ما نأكله بالأصابع.

- خاصم امرأته مرَّةً، وأراد أن يُطلِّقها، فقالت له: اذكر طُولَ الصحبة. فقال: والله ما لك عندي ذنبٌ غيره.

- أخذه بعض الولاة وقد اتهمه بالشرب، فاستنكَّه<sup>(٣)</sup> فلم يجد منه رائحة، فقال: قيئوه. قال: مَنْ يضمنُ عشائي أصلحك الله؟

- تناول رجل من لحيته شيئاً، فسكت عنه - وكان الرجل قبيح الوجه

(١) سورة التين، الآيتين: ١، ٢.

(٢) يقصد الامام مالك بن أنس إمام المذهب المالكي.

(٣) استنكَّه: شم رائحته.

- فقال: ويحك! لم لا تدعو لي؟ فقال: كرهتُ أن أقول: صرفَ الله عنكَ السوء، فتبقى بلا وجه.

- أتاه أصحابُ له يوماً فقالوا له: يا أبا إسحاق هل لك في الخروج بنا إلى العقيق، وإلى قُباء<sup>(١)</sup> وإلى أحد ناحية قبور الشهداء؟ فإن يوماً كما ترى يوم طيب.

قال: اليوم يوم الأربعاء، ولستُ أبرحُ من منزلي. قالوا: وما تكره؟ يوم الأربعاء فيه وُلِدَ يونس بن متى عليه السلام. قال: بأبي وأمي أنتم فقد التَّقْمه الحوت. قالوا: فهو اليوم الذي نُصِرَ فيه النبي ﷺ يومَ الأحزاب. قال: أجل، ولكن بعدَ إذ زاغَتِ الأبصار، وبلغتِ القلوب الحناجر. وظنُّوا بالله الظنون.

- رأى رجلٌ مزبداً بالرَّها<sup>(٢)</sup> وعليه جُبَّةٌ خَزَّ<sup>(٣)</sup>: وكان قد خرج إليها فحسنت حاله، وقال: يا مزبد، هَبْ لي هذه الجُبَّة. فقال: ما أملك غيرها. فقال الرجل: فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

فقال مزبد: والله أرحم بعباده أن يُنزلَ هذه الآية بالرَّها في كانون وكانون<sup>(٥)</sup>، وإنما نزلت بالحجاز في حزيران وتموز<sup>(٦)</sup>.

- وقيل له: ما ورثت أختك عن زوجها؟ فقال: أربعة أشهرٍ

(١) العقيق وقُباء: موضعان في المدينة المنورة.

(٢) الرَّها: مدينة بين الموصل والشام.

(٣) الخَزُّ من الثياب: ما يُنسج من الصوف.

(٤) سورة الحشر: ٩.

(٥) يقصد كانون الأول والثاني، وهما من أشهر الشتاء.

(٦) وهما من أشهر الصيف.

وعشراً<sup>(١)</sup>.

- وحضر مع محبوبٍ مجلساً، فعربدوا عليهما، فقام محبوب يقاتلهم ويفتري عليهم، فقال مزبد: اسكت يا أخي، فإنَّ القوم سُكاري، يذهبُ شُتمنا ضياعاً.

- ومرت به امرأةٌ قبيحة، فقال: لعنها الله، كأنَّ وجهها وجه إنسانٍ رأى شيئاً فزع منه.

- قال مزبد: جاءني صديقٌ لي فقال: ألا تسأل فلاناً التاجر أن يقرضني مائة درهم على رهن وثيق؟ فاني بضيقٌ مُنقطع بي. فقلت: إنه يفعل، فما الرهن؟ قال: اكتب له على نفسي بالقذف، وأشهد العدول، فإن وفيته حقُّه وقت المحل، وإلا استعدي عليَّ وأقام البينة بأني قذفته، حتى أحَدَّ حدَّ القاذف. فقلت له: يا أخي، هذا رهنٌ تنلُّ رغبةَ التاجر فيه.

- كان لمزبد غلام، وكان إذا بعثه في حاجةٍ جعل بينه وبينه علامةً، أن يكون إذا رجع سأله فقال: حنطة أو شعير؟ فإن كان عاد بالتُّجح<sup>(٢)</sup> قال: حنطة، وإن لم يقضِ الحاجة قال: شعير. فبعثه يوماً في حاجةٍ، فلما انصرف قال: حنطة أم شعير؟ قال: خرا.

قال: ويلك! وكيف ذلك؟ قال: لأنهم لم يقضوا الحاجة، وضربوني وشتموك.

- وغضب عليه بعض الولاة وأمر بحلق لحيته، فقال له الحجَّام: انفج فمك حتى أحلق قال: يابن الفاعلة، أمرك أن تحلق لحيتي أو تعلمني الزمر؟

(١) وهي عدة الوفاة، فمن توفي عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة أيام.

(٢) التُّجح: النجاح.

- اشتهد امرأته فالوذجاً، فقال: ما أيسر ما طلبت، عندنا من آله أربعة أشياء، وبقي شيان تحتالين فيهما أنت. قالت: وما الذي عندنا؟ قال: الطنجير<sup>(١)</sup> والإسطام<sup>(٢)</sup> والنار والماء. وبقي الدهن والعسل وهما عليك.

- قيل له: كيف حبك لأبي بكر وعمر؟ قال: ما ترك الطعام في قلبي حباً لأحد.

- شكأ إليه رجل سوء خلق امرأته، فقال له مزبد: بخرها بمثلثة. يريد الطلاق.

- وقيل له وقد عضه كلب: إن أردت أن يسكن فأطعم الكلب الثريد. فقال: إذا لا يبقى في الدنيا كلب إلا جاءني وعضني.

- زفت إلى مزبد امرأة قبيحة، فجاءت إليه الماشطة فقالت: بأي شيء تُصبِّحها؟ قال: بالطلاق.

- دُفع مزبد إلى والي المدينة ومعه زق<sup>(٣)</sup>، فأمر بضربه، فقال: لم تضربني؟ قال: لأن معك آلة الخمر. قال: وأنت- أعوك الله - معك آلة الزنى.

- قيل له - وقد اشترى حماراً-: ما في هذا الحمار عيب إلا أنه ناقص النفس بليد يحتاج إلى عصا. فقال: إنما كنت أغتم لو كان يحتاج إلى بزماورد<sup>(٤)</sup>، فأما العصا فإنها سهل.

- احتاج مزبد أن يبيع جبته لسوء حاله، فنادى عليها المنادي، فلم يطلب بشيء، فقال مزبد: ما كنت أعلم أنني عُريان إلى الساعة.

(١)(٢) من أدوات الطبخ.

(٣) الزق: وعاء من جلد للشراب وغيره.

(٤) البزماورد: طعام من بيض ولحم.

## بخلاء العرب

البخل ظاهرة شاذة بلا ريب، لكنها شأن كثير من الظواهر الاجتماعية ذات وجوه متعددة، وكلُّ وجه منها يضيف على الظاهرة طابعاً خاصاً ولوناً مميزاً، فالبخل - من الوجهة الأخلاقية والشرعية - طبع مذموم وسلوك مردول، ذمّه الله عزّ وجلّ بقوله: «وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى»<sup>(١)</sup>.

وحدّر منه رسول الله ﷺ في حديثه: «اتَّقُوا الظلم، فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتَّقُوا الشَّحَّ، فإنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»<sup>(٢)</sup> وهو من الناحية الاجتماعية سلوك قبيح يخالف ما تعارف عليه الناس من مدح الكرم والكرماء، وتمجيد الجود والعطاء.

وتزداد تلك الظاهرة شذوذاً وإنكاراً في المجتمعات العربية الإسلامية التي تحكمها تعاليم دينية وتقاليد متوارثة تحثُّ على البذل والعطاء، وتذمُّ البخل والبخلاء.

فكتاب الله عز وجل يحثُّ على الجود والكرم بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَلِبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾<sup>(٣)</sup> ورسول الله يدعونا إلى البذل في

(١) سورة الليل: ٨-١٠.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٧.

الحديث القدسي: «قال الله تعالى: أنفق يا بن آدم يُنْفِقْ عَلَيْكَ»<sup>(١)</sup>.

أما عن حديث الجود والكرم في الأدب العربي فحدّث ولا حرج، فكتب الأدب تعجُّ بأخبار الذين اشتهروا بقرى الضيف ونجدة الملهوف من أمثال حاتم الطائي، ومعن ابن زائدة، ويزيد بن المهلب، وقسّ بن ساعدة، وغيرهم.

ولكن رغم ذلك كله عرف المجتمع العربي الإسلامي منذ عصوره الأولى أشخاصاً قبضوا على الدرهم والدينار باسنانهم، وقترّوا على أنفسهم وأهليهم، وأمسكوا عن الإنفاق إلا بمقدار.

والعجيب أنّ هؤلاء البخلاء لم يجدوا غضاضة في مدح البخل، وتمجيد الشحّ، محتجين بأنّ البخل رُشدٌ في الإنفاق، وحفظٌ للنعمة والمال، وبعد عن الطيش والتبذير، فعلام الإنكار عليهم؟! والبخل - في زعمهم - من الخصال المحمودّة، والصفات المطلوبة؟؟ منذ القديم كان أمثال هؤلاء البخلاء هدفاً لسهام الأدباء، ومادة خصبة للسخرية اللاذعة والتهكم المرير، حتى فاضت كتب الأدب بهجائهم والتندر بحالهم ووصف موائدهم الفارغة، وطعامهم الهزيل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

ولعل خير مَنْ كتب عن البخلاء أديب العربية وأمام الساخرين الجاحظ، فأجاد في وصفهم، وأسهب في الحديث عنهم والسخرية من حالهم، حتى أضحي كتابه «البخلاء» معلماً بارزاً من معالم أدب الفكاهة في التراث العربي.

ولا تقتصر أخبار البخل والشحّ على كتاب «البخلاء» إذ إنّ عناية

(١) متفق عليه.



الجاحظ بأخبار بخلاء خراسان من المروزيين وغيرهم جعلته يقصّر في تعقب هذا الموضوع.

وقد أكمل ذلك النقص مصنفو كتب المنتخبات الأدبية، إذ تسابق هؤلاء في جمع نوادر بخلاء العرب المعروفين وعلى رأسهم بخلاء العرب الأربعة: الحطيئة، وحميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان. وجلّ هذه النوادر لا تجدها في كتاب الجاحظ، ولم أشأ أن أفارق حديث الفكاهة والمُلح دون التعرّيج على البخلاء، ولذلك رأيت أن أختم الكتاب بفصل أعرض فيه نماذج من أخبار بخلاء العرب ونواديرهم، وجلّ هذه الأخبار تجدها في العقد الفريد، ونثر الدر، والمستطرف.

### بخلاء العرب الأربعة:

ذكر صاحب المستطرف أنّ بخلاء العرب أربعة: الحطيئة، وحميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان<sup>(١)</sup>.

ولكن وجدت كتب الأدب تضيف إلى هؤلاء الأربعة أسماءً أخرى توازيها، إن لم تفقها بخلاً.

ونبدأ حديث البخل والشحّ مع أبي الأسود الدؤلي إمام البخلاء بلا منازع.

### أبو الأسود الدؤلي:

كلنا نعرف أبا الأسود الدؤلي الشاعر والفارس وواضع علم النحو وحركات الإعراب وأوّل من نَقَطَ المصحف، ولكن هل أتاك حديث بخله وتقتيره؟

(١) المستطرف في كل فنٍ مستطرف: ٢٨٣.

إن كان جوابك النفي فاستمع لهذه النوادر:

- وقف أعرابيٌّ على أبي الأسود وهو يتغذى، فسلم عليه، فردَّ عليه، ثم أقبل على الأكل ولم يعرض عليه، فقال له الأعرابي: أما إني قد مررت بأهلك. قال: ذاك كان طريقك. قال: هم صالحون. قال: كذاك فارقتهم. قال: وامرأتك حُبلى. قال: كذاك عهدتها. قال: ولدت. قال: ما كان لها بدُّ من أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذاك كانت أمُّها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر. قال: ما كان ليبقى بعد أخيه. قال: وماتت الأمُّ. قال: حزناً على ولدها. قال: ما أطيب طعامك. قال: لأجل ذلك أكلته وحدي. قال: أف لك! ما لأملك. قال: من شاء سبَّ صاحبه.

- ووقف عليه أعرابيٌّ آخر وهو يأكل فقال الأعرابي: أدخل؟ قال: وراءك أوسع لك. قال: الرَّمضاء أحرقت رجلي. قال: بلُّ عليهما يبردان. قال: أتأذن لي أن آكل معك؟ قال: سيأتيك ما قدر لك. قال: تالله ما رأيت رجلاً أأم منك. قال: بلى قد رأيت إلا أنك نسيت.

- وأكل أعرابي ثالث مع أبي الأسود رطباً فأكثر، ومدَّ أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها، فسقطت منه في التراب. فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها. فقال الأعرابي: لا والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء ما تركتها.

- سأله رجلٌ شيئاً فمنعه، فقال له: يا أبا الأسود، ما أصبحت حاتماً، فقال: بل أصبحت حاتماً، أما سمعت حاتماً يقول:

أماويّ إمامانع فمُبِين وإماعطاء لا يُنهنهُ الزجرُ

- أرسلت امرأةٌ من قوم أبي الأسود ابنها إليه أن يعيرها القدر، ويُعلمه أن أمه نذرت أن تجعل للحَيِّ طعاماً، فقال أبو الأسود: سلوها فإن

كانت قِدْرُنَا دخلت في نذرها، وإلا فلتطلب غيرها.

- وكان يروق لأبي الأسود أن ينظر للبخل ويفلسف التقتير على طريقته، استمع إليه وهو يشرح فلسفته في البخل:

قال أبو الأسود: لو أطعمنا المساكين أموالنا لكنا أسوأ حالاً منهم.

وقال لبيه موصياً ناصحاً: لا تُطمعوا المساكين في أموالكم، فإنهم لا يقنعون منكم حتى يروكم مثلهم.

وقال لهم أيضاً: لا تُجاودوا الله، فإنه لو شاء أن يُغني الناس كلهم لفعل، ولكنه علم أن قوماً لا يُصلحهم الغنى ولا يصلح لهم إلا الفقر، وقوماً لا يُصلحهم الفقر ولا يصلح لهم إلا الغنى.

وقال أيضاً: إمساكك ما بيدك خيرٌ من طلبك ما بيد غيرك.

وأنشد في هذا المعنى:

يلومونني في البخل جهلاً وضلَّةً      وللبُّخلُ خيرٌ من سؤال بخیلٍ

### الحطيئة<sup>(١)</sup>:

- مرَّ رجلٌ بالحطيئة وهو على باب داره ويديه عصا، فقال: أنا ضيف.

فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها.

- مرَّ ابن أبي الحمامة بالحطيئة وهو جالس بفناء بيته، فقال: السلام عليكم. فقال: قلت ما لا يُنكر. قال: إني خرجت من عند أهلي بغير زاد. فقال: ما ضمنت لأهلك قراك. قال: أفتأذن لي أن آتي ظل بيتك

(١) الحطيئة: جرول بن أوس، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجاءً عنيفاً لم يسلم من لسانه أحد. (الأعلام ٢/١١٨).

فَاتْفِيًّا بِهِ؟ قَالَ: دُونَكَ الْجَبَلُ يَفِيءُ عَلَيْكَ. قَالَ: أَنَا ابْنُ الْحَمَامَةِ. قَالَ:  
انصرف وكن ابن أي طائر شئت.

### خالد بن صفوان<sup>(١)</sup>

- كان خالد بن صفوان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يَا عَيَّارُ<sup>(٢)</sup> كَمْ  
تَعِير؟ وَكَمْ تَطُوفُ وَتَطِير؟ لِأَطِيلَنَّ حَبْسَكَ ثُمَّ يَطْرَحُهُ فِي الصَّنْدُوقِ وَيُقْفَلَ  
عَلَيْهِ.

- قِيلَ لَخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ: مَا لَكَ لَا تُتَفَقَّ فَإِنَّ مَالِكَ عَرِيضٌ؟ قَالَ:  
الْدَهْرُ أَعْرَضُ مِنْهُ.

فَقِيلَ لَهُ: كَأَنَّكَ تَوَمَّلُ أَنْ تَعِيشَ الدَّهْرَ كُلَّهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَخَافُ  
أَلَّا أَمُوتَ فِي أَوْلِهِ.

- أَجْرَى خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لَوْلَدِهِ فِي الشَّهْرِ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، فَكَانَ  
يَقُولُ: إِنْ الثَّلَاثِينَ لِأَعْبَثُ فِي الْمَالِ مِنَ السُّوسِ فِي الصُّوفِ فِي الصَّيْفِ.

### هشام بن عبد الملك<sup>(٣)</sup>:

قَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ: دَخَلْتُ عَلَى هِشَامٍ، فَأَطْرَفْتُهُ وَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ:  
سَلْ حَاجَتَكَ. فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَزِيدُ فِي عَطَائِي عَشْرَةَ دِنَانِيرٍ.  
فَأَطْرَقَ حِينًا. وَقَالَ: فِيمَ؟ وَلِمَ؟ وَبِمَ؟ الْعِبَادَةُ أَحْدَثُهَا؟ أَمْ لِبَلَاءِ حَسَنِ  
أَبْلِيَّتِهِ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ أَلَا لَا يَأْبَنُ صَفْوَانَ، وَلَوْ كَانَ لَكُنْثَرُ السُّؤَالِ، وَلَمْ

(١) خالد بن صفوان: من فصحاء العرب المشهورين، كان يجالس عمر بن عبد العزيز،  
وهشام بن عبد الملك، توفي سنة ١٣٣هـ. (الأعلام: ٢/٢٩٧).

(٢) العيَّار: الكثير الذهاب والمجيء في الأرض.

(٣) هشام بن عبد الملك: (٧١-١٢٥هـ) من خلفاء الدولة الأموية.

يحتمله بيت المال .

- وخرج هشام بن عبد الملك متنزهاً ومعه الأبرش الكلبى ، فمرَّ براهب في ديرٍ ، فعدل إليه ، فأدخله الراهب بستاناً له ، وجعل يجتني له أطيب الفاكهة ، فقال له هشام : يا راهب ، بعني بستانك . فسكت عنه الراهب ، ثم أعاد عليه ، فسكت عنه ، فقال له : ما لك لا تُجيبني؟ فقال : وددت أن الناس كلهم ماتوا غيرك . قال : لماذا ويحك؟ قال : لعلك أن تشبع .

فالتفت هشام إلى الأبرش فقال : ما سمعتَ ما قال هذا؟ قال : والله إن لقيك حُرَّ غيره .

- وحضر أعرابيُّ سفرة هشام بن عبد الملك ، فبينما هو يأكل إذ تعلقت شعرة في لقمة الأعرابي فقال له هشام : عندك شعرة في لقمته يا أعرابي . قال : وإنك لتلاحظني ملاحظةً مَنْ يرى الشعرة في لقمته!! والله لا أكلت عندك أبداً .

وخرج وهو يقول :

وللموت خيرٌ من زيارة باخل يُلاحظ أطراف الأكيل على عمْد

- دخل هشام بن عبد الملك حائطاً له فيه أشجار فاكهة ، ومعه أصحابه ، فجعلوا يأكلون منه ويدعون له بالبركة ، فقال هشام : كيف يُبارك فيه وأنتم تأكلون؟

ثم قال : يا غلام ، اقلع هذا أو اغرس مكانه الزيتون .

أبو جعفر المنصور<sup>(١)</sup> :

- دخل المؤمل بن أميل على المهدي بالري وهو إذ ذاك ولي عهد

(١) أبو جعفر المنصور (٩٥-١٥٨هـ) ثاني خلفاء بني العباس .

أبيه المنصور، فامتدحه بأبيات، فأعطاه المهدي عشرين ألف درهم، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام بغداد، فكتب المنصور إلى المهدي يلومه على هذا العطاء ويقول له: إنما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر إذا أقام ببابك سنة، أربعة آلاف درهم. وأمر كاتبه أن يوجه إليه بالشاعر، فطلب، فلم يوجد، وذكر أنه توجه إلى بغداد، فكتب الكاتب إلى المنصور بذلك، فأمر بعض القواد بإرصاد المؤمل على باب بغداد، فجعل القائد يتصفح وجوه الناس القادمين عليها ويسألهم عن أسمائهم وأسماء آبائهم، حتى وقع على المؤمل، فسأل عن اسمه فأخبره، فقال: أنت بغية أمير المؤمنين وطلبتة. قال المؤمل: فكاد قلبي ينصدع خوفاً وفزعاً، ثم أخذ بيدي فسار بي إلى الربيع. فأدخلني على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا المؤمل بن أميل قد ظفرت به.

فسلمت، فرد السلام، فسكن جأشي وزال استيحاشي عند ذلك واطمأن قلبي وزال روعي، ثم قال لي: أتيت غلاماً غراً فخدعته فانخدع. فقلت: يا أمير المؤمنين، أتيت ملكاً جواداً كريماً فمدحته، فحمله كرم أعراقه ومكارم شيمه على صلتي وبرِّي. فأعجبه كلامي، ثم قال: أنشدني ما قلت فيه. فأنشدته القصيدة. فقال: والله لقد أحسنت، ولكنها لا تساوي عشرين ألفاً، يا ربيع، خذ منه المال وأعطه منه أربعة آلاف درهم.

ف فعل، فلما ولي المهدي الخلافة، قدم عليه المؤمل، فأخبره بما دار بينه وبين المنصور. فضحك، وأمر برداً ما أخذ منه.

- قال المنصور للوضين بن عطاء: ما عيالك؟ قال: ثلاث بنات والمرأة. فقال: أربع في بيتك!! قال: فردد ذلك حتى ظننت أنه

سيصليني، ثم رفع رأسه وقال: أنت أيسر العرب، أربعة مغازل تدور في بيتك!

- أعطى المنصور بعضهم شيئاً ثم ندم، فقال له: لا تنفق هذا المال واحتفظ به. وجعل يكرّر عليه ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت فاختمه حتى ألقاك به يوم القيامة. فضحك وخلاًه.

- ويُحكى عن المنصور أنه قال لطابخيه: لكم ثلاث وعليكم اثنان. لكم الزؤوس والأكارع والجلود، وعليكم الحطب والتوابل.

محمد بن الجهم<sup>(١)</sup>:

وهو من رؤساء أهل البخل كما وصفه ابن عبد ربه<sup>(٢)</sup> وهو الذي قال: وددت أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الشعراء وعشرة من الخطباء، وعشرة من الأدباء تواطؤوا على ذمي، واستهلوا بشتمي، حتى يُنشر ذلك عنهم في الآفاق، حتى لا يمتد إليّ أمل أمل، ولا ينبسط نحوي رجاء راج. - وقال له أصحابه: إنما نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استحسانك لقيامنا؟ قال: علامة ذلك أن أقول: يا غلام، هات الغداء.

- وذكر ثمامة بن أشرس محمد بن الجهم فقال: لم يُطمع أحداً قط في ماله إلا ليشغله عن الطمع في غيره، ولا شفع في صديق ولا تكلم في حاجة محترم إلا ليلقن المسؤول نخجة المنع، ويفتح على السائل باب الحرمان.

(١) لم نعثر على ترجمة له.

(٢) العقد الفريد: ١٧٧/٦.

## مروان بن أبي حفصة<sup>(١)</sup> :

- قال أبو عبيدة عن جهم : أتيت اليمامة ، فنزلت على مروان بن أبي حفصة ، فقدم إليّ تمراً ، وأرسل غلامه بفلس وسكرجة يشتري زيتاً ، فأتى الغلام بالزيت ، فقال له : ختنتي وسرقتني . قال : وفيم كنت أخونك وأسرقك في فلس؟ قال : أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت .

- اجتاز مروان بامرأة من العرب ، فأضافته ، فقال لها : عليّ إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم أن أهب لك درهماً . فأعطاه سبعين ألفاً ، فأعطاهم أربعة دوانيق<sup>(٢)</sup> .

- وقال مروان : ما فرحت بشيء فرحي بمائة ألف درهم وهبها لي أمير المؤمنين ، فزادت درهماً فاشتريت به لحماً .

- وكان مروان لا يأكل إلا الرؤوس ، ف قيل له في ذلك فقال : لأن الغلام لا يقدر أن يخونني فيه ، إن أخذ أذنأ أو أخذ عيناً وقفت على ذلك ، وآكل منه ألواناً : آكل عينه لوناً ، ودماغه لوناً ، وأذنيه لوناً ، وأكفى مؤنة طبخه في البيت ، فقد اجتمع لي فيه مرافق شتى .

- نزل على مروان رجل من اليمامة ، فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة ، فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه :

يا أيها الخارج من بيته      وهارباً من شدة الخوف  
ضيفك قد جاء بزادٍ له      فارجع وكن ضيفاً على الضيف

(١) مروان بن أبي حفصة : (١٠٥-١٨٢هـ) شاعر عالي الطبقة ، نشأ في العصر الأموي وأدرك زمناً من العهد العباسي . (الأعلام : ٢٠٨/٧) .

(٢) الدوانيق : مفردتها (دانق) وهو سدس الدرهم .



## مصادر أدب الفكاهة في التراث العربي

### أولاً - كتب المنتخبات الأدبية:

تعتبر كتب المنتخبات الأدبية من أنفس ذخائر التراث العربي وأهمها، وهي لون من ألوان التأليف الأدبي يقوم على جمع مختارات من الشعر والنثر، والخطب والأمثال، والحكم والمواعظ، وذلك عملاً بقاعدة مقررة تُعرّف الأدب بأنه: «حفظ أشعار العرب وأخبارهم، والأخذ من كل علم بطرف».

وقد جرت عادة مصنفي هذا النوع من الكتب على تضمينها بعض النوادر والملح دفعاً للسام، وترويحاً عن النفس، وإمتاعاً للقارئ، إذ يندر أن يخلو كتاب من تلك الكتب من بعض النوادر والملح والأخبار الطريفة.

وقد أظهرت بعض كتب المنتخبات تلك عناية خاصة بالنوادر والملح، من أشهرها الكتب التالية:

### الأغاني:

مؤلفه: أبو الفرج الأصفهاني.

والأغاني كتاب غني عن التعريف، فهو موسوعة أدبية في تراجم

الشعراء والأدباء وأخبار العرب في الجاهلية والإسلام، لكنه يكتسب أهمية خاصة في ميدان أدب الفكاهة، فهو مرجع لا غنى عنه لمن أراد تتبع أخبار ظرفاء العرب وتقصي نوادرهم وملحهم وحيلهم، فقد جمع الأصفهاني في كتابه هذا طائفة كبيرة من أخبار ظرفاء العرب المعروفين من أمثال:

ابن أبي عتيق، وأبي دلامة، وأبي الشبل، وأبي صدفة، وأشعب، والأقيشر، ومطيع بن إياس، وأبي نواس، وأبي العبر، وغيرهم. هذا فضلاً عن التعريف بهم وترجمة حياتهم ولو بشيء من الإيجاز.

### نثر الدر:

مؤلفه: أبو سعيد منصور بن الحسين الآبي (ت: ٤٢١هـ) ويضم هذا الكتاب أبواباً مطوّلة خُصِّصت للنوادر والملح، فهناك باب في «مزح الأشراف والأفاضل والعلماء» عرض الآبي فيه جانباً من مزاح رسول الله ﷺ ودعابات الصحابة والتابعين والعلماء.

وباب في «نوادير المدنيين (أي أهل المدينة الذين اشتهروا بالظرف)».

وباب في «نوادير الطفيليين»، وهكذا الحال مع الحمقى، والمجانين، والبخلاء، والشطّار، مخصصاً باباً مستقلاً لكل فئة منهم. كما اعتنى الآبي بتتبع أخبار ظرفاء العرب، إذ أفرد أبواباً خاصة لكل من أبي العيّن، ومُزبّد، وأبي الحارث جُمّين، والجَمّاز.

### العقد الفريد:

مؤلفه: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٧هـ)

وهو من أكثر كتب المنتخبات الأدبية عناية بأدب الفكاهة، إذ خصّها مصنفه «ابن عبد ربه» ببايين كاملين، أو جوهرتين على حد تعبيره، حيث جعل كتابه هذا عقداً مؤلفاً من خمس وعشرين جوهرة.

وأولى هاتين الجوهرتين في «نوادير المتنبئين (أي مدعي النبوة) والممرورين (أي المزاجيين) والبخلاء والطفيليين»: وهو باب طويل يحفل بمجموعة كبيرة من النوادر الطريفة، وقد قسمه المصنف إلى عدة فصول، وكل فصلٍ مخصص لنوادير طائفة من الطوائف المذكورة آنفاً.

ومن الفصول الطريفة في هذا الباب - أو الجوهرة - فصل في نوادر «نوكرى الأشراف» جمع فيه المصنف أخبار حنقى العرب المعروفين من قبيل: مالك بن زيد، ومعاوية بن مروان، وعينية بن حصن.

أما أطرف ما في هذا الباب فهو أخبار البخلاء، فقد أطنب ابن عبد ربه في الحديث عنهم، وتعقب أخبارهم ونواديرهم وأقوالهم، وما قيل عنهم وعن طعامهم، ولم يغفل الحديث عن بخلاء العرب المشهورين من أمثال الحطيئة، وأبي الأسود الدؤلي، ومروان بن أبي حفصة، وخالد بن صفوان.

أما الجوهرة الثانية فقد جعلها في «الفكاهة والملح» وقد استهل هذا الباب - كعادة المصنفين - بذكر ما ورد عن رسول الله ﷺ في إباحة المزاح مع الإشارة إلى بعض ما روي عنه ﷺ من مزاح ودعابة. ثم أورد المصنف مجموعة من دعابات الصحابة والتابعين ونوادير الأشراف والأعيان والأمراء والعلماء والظرفاء ومحترفي الهزل والإضحاك. هذا فضلاً عن مجموعة من النوادر والأخبار الطريفة التي نجدتها مثورة في شتى أبواب الكتاب الأخرى.

## نهاية الإرب في فنون الأدب:

مؤلفه: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (٦٧٧-٥٧٣٣هـ).

وهو موسوعة ضخمة حوت من كل علم خبر، إذ تقع فيه على مباحث في الفلك والتاريخ والجغرافيا والطب والأدب والفنون، وكتاب هذا حاله من حيث الشمول وتنوع الأغراض لا بد أن يتعرض للفكاهة والنوادر، وهذا ما كان، إذ جعل النويري القسم الثالث من الفن الثاني (وهو فن الإنسان وما يتعلق به) خاص بـ «المدح، والهجو، والمجون، والفكاهات، والملح، والخمر، والمعاقرة، والندماء، والقيان، ووصف آلات الطرب» وفيه سبعة أبواب، ويهمننا البابان الثاني والثالث.

أما الثاني فقد عرض النويري فيه نماذج من الهجاء الساخر الفكاهة، وما قيل في البخل واللؤم، وأخبار البخلاء، وما قيل في التطفل، والحمق، والجهل، والعيي، والحرص، والطمع، وغير ذلك من أبواب أدب الفكاهة.

أما الباب الثالث فقد عرض فيه طرفاً من مزاح رسول الله ﷺ مع ذكر من اشتهر بالمزاح من الصحابة.

ثم عرض شيئاً من مجون الأعراب، ونوادر القضاة، والنحاة، والمتبين، والمغفلين والحمقى، والنيذيين، والنساء، والجواري، والعميان، ونوادر السؤال، ونوادر من اشتهر بالمجون، وذكر منهم: مَزْبَد، وأشعب، وأبا دلامة، وأبا صدقة، والأقشر، وأبا سيّابة، ومطيع ابن إياس الكنانى، وأبا الشبل، وحمزة بن بيّض الحنفي، وأبا العيناء. وقد نقل معظم أخبارهم ونوادرهم من كتاب الأغاني.

ثم ختم الباب بذكر ما ورد في كراهة المزاح من الأحاديث النبوية الشريفة. وأقوال العلماء والحكماء والشعراء.

## المستطرف في كل فنٍ مستظرف:

مؤلفه: بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد الأبيشي (٧٩٠-٧٩٠)

(٨٥٢هـ)

وقد أظهر الأبيشي في كتابه هذا شغفاً واضحاً بجمع النوادر والملح، فخصّها بثلاثة أبواب أولها في «المزاح والنهي عنه، وما جاء في الترخيص فيه» وهو باب تقليدي لا يخلو منه كتاب من هذا النوع، إذ يتضمن ما ورد في النهي عن المزاح، ثم ما جاء في الترخيص فيه من الأحاديث وأقوال العلماء والفقهاء مع ذكر نماذج من مزاح الرسول ﷺ والصحابة. والباب الثاني في «البخل والشح وذكر البخل وأخبارهم وما جاء عنهم» وقد جمع فيه الأبيشي مختارات من نوادر بخلاء العرب كالحطيئة، وأبي الأسود الدؤلي، وحميد الأرقط، كما عرض طائفة من أشعار البخلاء وما قيل عنهم. أما ثالث تلك الأبواب فقد جعله الأبيشي للنوادر بشكل عام، وقسمه إلى عدة فصول، وجعل كل فصل خاص بنوادر طائفة معينة، فهناك فصل في نوادر الأعراب، وآخر في نوادر الفقهاء، وثالث في نوادر القضاة، وهكذا دواليك.

وقد عرض في هذا الباب نوادر الأعراب، والفقهاء، والقضاة، والنحاة، والمعلمين، والمتنبئين، ونوادر السؤال، والمؤذنين، والنواتية.

وهذا الباب غنيٌّ بالنوادر الطريفة التي تنتزع الضحك من الأعماق، وقد جمعها الأبيشي من كتب سابقه، كما أضاف إليها بعض النوادر التي

لا نجدها في الكتب الأخرى.

## ثانياً- مؤلفات خاصة بأدب الفكاهة:

ولا تقتصر مصادر أدب الفكاهة على كتب المتخبات الأدبية فحسب، فقد أظهر بعض المصنفين قديماً تعلقاً بالنوادر والملح، وشغفاً بالفكاهة وأهلها، فترجموا ذلك الاهتمام والشغف بتصنيف كتب كُرِّست بالكامل للنوادر والأخبار الطريفة.

وقد سلك هؤلاء المصنفون في تأليف كتبهم مسلكاً خاصاً يقوم على اختيار المصنف فئة اجتماعية شاذة كالبخلاء أو الطفيليين أو الحمقى، فيتبع أخبارهم ويتقصّى نوادرهم، ومن ثم يجمعها في كتاب واحد. وإلى جانب هذا اللون من التأليف الأدبي أخذ بعض الشعراء والأدباء الذين طُبِعوا بالظرف وحبّ الدعابة يصنفون كتباً نثرية، ودواوين شعرية، ويودعون فيها إبداعاتهم الخاصة في ميدان الفكاهة، مؤسسين بذلك مذهب الكتابة الساخرة الذي راج أمره في العصر الحديث.

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن كل ما كُتِب في هذا الباب، لذلك سنكتفي بالإشارة إلى المحقق والمنشور من تلك الكتب.

## جمع الجواهر في المُلح والنوادر:

مؤلفه: أبو اسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني المتوفي سنة

٤٥٣هـ.

وقد جمع الحصري في كتابه هذا مجموعة كبيرة من النوادر والملح، والفكاهات والطُرف، لكنه يستطرد أحياناً إلى المختار من الشعر، والجيد من النثر.

وقد حرص مصنفه على الابتعاد عن كل ما ينهى عنه الدين، وتأباه الأخلاق، ولذلك خلا هذا الكتاب من نوادر المجون والخلاعة التي تقع على بعضها في كتب الأدب الأخرى، مثل الأغاني والعقد الفريد ونثر الدر.

وقد جمع الحصري في كتابه هذا مختارات من نوادر البخلاء والطفيليين والحمقى والقضاة والفقهاء والمنتبين واللغويين والمجانين وغيرهم، كما اعتنى بتعقب أخبار أعلام الفكاهة في الأدب العربي كأشعب، وأبي دلامة، والجَمَّار، وأبي علقمة النحوي، وابن أبي عتيق، وأبي العيناء، وغيرهم. ولكن يؤخذ على هذا الكتاب افتقاره إلى الترتيب والتبويب، إذ نجد النوادر متداخلة في بعضها دونما تبويب أو تصنيف، لكن هذا لا يبغض الكتاب حقه، إذ يبقى كتاب «جمع الجواهر» مرجعاً هاماً من مراجع أدب الفكاهة.

## المُزاح في المُزاح:

مؤلفه: الشيخ بدر الدين أبو البركات محمد الغزي (٩٠٤-٩٨٤هـ).

وهو كتاب طريف فريد في موضوعه، إذ جمع فيه مؤلفه ما روي في مزاح الرسول ﷺ والصحابة والتابعين والعلماء.

وقد ذكر الغزي في مستهل كتابه هذا أنه سُئل عن المزاح وحكمه، فأجاب أنه مستحب ولا كراهة فيه طالما روعيت فيه الآداب الشرعية. ثم رأى أن يبسط الحديث في هذا الموضوع مبيناً بالأدلة والشواهد صدق ما ذهب إليه، فكان كتاب «المُزاح في المُزاح» الذي جمع فيه مصنفه كل ما روي في مزاح رسول الله ﷺ مع أصحابه وزوجاته، كما تعقب أخبار ظرفاء الصحابة وعلى رأسهم: نعيمان الأنصاري. ومن التابعين والعلماء

الذين حفل الكتاب بنواديرهم: الأعمش، والشَّعبي، وابن أبي عتيق، وابن سيرين، والشافعي، وابو حنيفة، والقاضي شريح.

## التفيل وحكايات الطفيلين:

مؤلفه: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (٣٩٢-٤٦٣هـ).

وهو من تلك الكتب التي تقتصر على باب واحد من أبواب أدب الفكاهة (كالبخل والحمق والظرف والمجون... الخ).

ويمكننا أن نُقسِّم الكتاب إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: توطئة لغوية وشرعية لموضوع التفيل، إذ يبحث في معنى التفيل لغةً، وأول من نُسب إلى التفيل، والموقف الشرعي من التفيل في إطار ما روي عن رسول الله ﷺ في ذلك، مع الإشارة إلى من طَفَّل في عهد الرسول ﷺ من الصحابة.

ثم يختم البغدادي هذا القسم بعرض صورتين متناقضتين للتفيل: إحداهما في ذمِّ التفيل وأهله، والثاني من مدحه والدفاع عنه.

أما القسم الثاني فيعرض البغدادي فيه أخباراً نلمس فيها روح التفيل وإن لم يكن أصحابها ممن عرفوا به، وتطالعنا في هذا الفصل أخبار «من طفل من الأكابر والأشراف وأهل العلم والأدب» وأخبار «من عرض بالتفيل ولم يصرح به» و«من أحبَّ تفيل غيره عليه فسَهَّل له السبيل إليه».

ويعرض البغدادي في القسم الثالث طائفةً من أخبار الطفيلين ونواديرهم وحيلهم ووصاياهم وأشعارهم.

أما القسم الرابع فهو خاص بأحد أعلام الطفيلين وهو «بَنان»



الطفيلي، إذ نقرأ فيه أخبار بنان هذا مع طرفٍ من أشعاره ونوادره وحيثه .  
ثم يختم البغدادي كتابه بإثبات عهد «عليكا» في التطفيل .

والكتاب بمجمله جيد التبويب، طريف المادة، لكن المصنف أثقله  
بذكر الأسانيد كعاداته في مؤلفاته، فلا يصل القارئ إلى النادرة إلا بعد  
سلسلة طويلة من الرواة قد تبعث على الملل . ومما يسترعي الانتباه حقاً  
تجاهل المصنف أخبار أشعب بن جبير رأس التطفيل وأمير الطفيليين في  
التراث العربي، وهذا ما يجعل الكتاب برأينا ناقصاً مبتوراً، ولعل ما  
يشفع له توسعه في ذكر أخبار بنان الطفيلي الذي لا يقل أهمية عن  
أشعب .

وعلى العموم يمكن للباحث أن يستكمل نقص هذا الكتاب بالرجوع  
إلى كتاب الأغاني الذي أطنب كثيراً في الحديث عن أشعب .

### أخبار الحمقى والمغفلين :

مؤلفه : أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٥٠٨-٨٩٧هـ) ويُعتبر  
هذا الكتاب من أوسع الكتب التي عالجت موضوع الحمق والحماسة  
بأسلوب فكه ساخر، إذ يضم الكتاب مجموعة كبيرة من النوادر الطريفة  
والأخبار المضحكة تدور حول موضوع واحد هو الحماسة والتغفيل . وقد  
اعتنى ابن الجوزي - كعاداته في سائر مصنفاته - بدقة التصنيف وحسن  
التبويب، إذ قسّم كتابه هذا إلى أربعة وعشرين باباً، جعل الأبواب السبعة  
الأولى تمهيداً لغويّاً وعلمياً وأدبياً للكتاب، إذ بيّن فيها معنى الحماسة  
والتغفيل، وذكر مجموعة من الأسماء التي يطلقها فقهاء اللغة على  
الأحمق، ثم بسط الحديث عن ظاهرة الحمق وصفات الأحمق الخُلقيّة  
والخُلقيّة .

وتبدأ الفكاهاة والنوادر مع الباب الثامن الذي جمع فيه أخبار من ضرب المثل بحمقه وتغفيله، فعرض فيه نوادر هبّقة. وأبي غبشان، وشيخ مهو، وعجل بن لجيم، وحمزة بن بيض، وأبي أسيد، وجحا، ومزبد، وأزهر، وأبي محمد جامع الصيدلاني، وأبي عبد الله الجصاصي. ثم تتابع الأبواب الفكهة التي خصّ كل واحد منها بنوادر طائفة من طوائف الحمقى، إذ نقف فيها على نوادر القُرّاء، ورواة الحديث، والقضاة، والأمرء، والولاة، والكتّاب، والحجّاب، والمؤذنين، والأئمة، والأعراب، والامتزهدين، والمعلمين، واللغويين، وغيرهم.

ثم يختم الكتاب بباب في «ذكر المغفلين على الإطلاق» وهو أطول أبواب الكتاب، إذ جمع فيه مجموعة كبيرة من نوادر المغفلين التي لم يجد لها مكاناً مناسباً في الأبواب السابقة فرأى أن يعرضها مع مثيلاتها في باب واحد.

### أخبار الظرفاء والمتماجنين:

مؤلفه: ابن الجوزي.

وهو كتاب ظريف حافل بنوادر الظرفاء وأخبارهم وحيلهم وأقوالهم.

وقد قسّمه المصنف إلى ثلاثة أبواب:

باب فيما ذكر عن الرجال، وباب فيما ذكر عن النساء، وباب فيما ذكر عن الصبيان.

أما الباب الأول - وهو أطول الأبواب وأهمها - فقد قسّمه بدوره إلى خمسة أقسام: أولها ما يروى من ذلك عن الأنبياء، والثاني: ما يروى عن الصحابة، والثالث: ما يروى عن العلماء والحكماء، والرابع: ما

يروى عن الأعراب، والخامس: ما يروى عن العوام.

وأطرف هذه الأقسام هو القسم المخصص لنوادر العلماء والحكماء، وإن كان عنوانه لا ينبئ عن مضمونه بدقة، إذ داخلته نوادر بعض الظرفاء الذين لا يمتنون بصلة إلى العلم والحكمة من أمثال أشعب ومزبد وأبي العيناء، وبهلول، والجمّاز. ومن الفقهاء الذين نقف على نوادرهم: القاضي شريح، والأعمش، والشعبي، وأبو حنيفة، وأبو حازم القاضي، وابن عقيل.

## الأذكياء:

مؤلفه: ابن الجوزي.

وهو كتاب ظريف يضم مجموعة كبيرة من القصص والأخبار والنوادر التي تدور حول الذكاء والفتنة ودقة الملاحظة وسرعة البديهة، والحق أن كثيراً من أخبار هذا الكتاب لا تخلو من ظرف وطرافة، خصوصاً تلك التي وردت في الأبواب المخصصة للأعراب والطفيليين والصوص، وهذا ما دعانا إلى إدراج هذا الكتاب ضمن كتب أدب الفكاهة.

وقد استهل ابن الجوزي الكتاب - كعادته - بذكر الغاية من تأليفه وهي «معرفة قدر الأذكياء، وتلقيح ألباب السامعين إذا كان فيهم نوع استعداد لنيل تلك المرتبة، وتأديب المعجب برأيه إذا سمع أخبار من تعرّس عليه لحاقه».

وقد قسم كتابه هذا إلى ثلاثة وثلاثين باباً جعل الأبواب الأربعة الأولى تمهيداً للكتاب تماماً كما وجدنا في كتاب أخبار الحمقى، وقد بيّن في هذه الأبواب التمهيدية فضل العقل وماهيته، ومعنى الذهن والفهم

والذكاء والعلامات التي يُستدل بها على ذكاء الذكي معتمداً في إيضاح هذه الأمور على أقوال العلماء والفقهاء وأئمة اللغة، ثم عرض بعد ذلك أخبار الأذكياء ونواديرهم وفق تقسيم جيد للأبواب، ويمكننا بدورنا أن نقسم أبواب الكتاب إلى قسمين:

١- قسم بنى تبويبه على أساس الفئة التي ينتمي إليها صاحب الخبر، إذ جعل لكل فئة أو طبقة اجتماعية باباً مستقلاً جمع فيه أخبار هذه الفئة، ونقرأ في هذه الأبواب ما نقل عن الصحابة، والخلفاء، والوزراء، والسلاطين، والأجراء، والحجّاب، والشرطة، والقضاة، والعلماء، والفقهاء، والعبّاد، والزهاد، والأعراب، والشعراء، والمحاربين، والمتطيين، والمتطفلين، والمتلصصين، والصبيان، والنساء، وعقلاء المجانين.

٢- أما القسم الثاني من أبواب الكتاب فقد بنى تبويبه بالنظر إلى موضوع الخبر ونوعه، ومعظم هذه الأبواب طريف مستملح يحفل بنوادير الأذكياء وحيلهم، ومن هذه الأبواب باب في «ذكر من احتال فانعكس عليه مقصوده» وباب في «ذكر من وقع في آفة فتخلص بالحيلة منها» وباب في «ذكر من استعمل بذكائه المعارض» وباب في «ذكر من فلج خصمه بالجواب المسكت» وباب في «ذكر من غلب من العوام بذكائه كبار الرؤساء». ثم ختم ابن الجوزي كتابه بباين طريفيين أولهما «فيما ذكر عن الحيوان البهيم مما يشبه ذكاء الآدميين» وقد ساق فيه بعض ما سمعه أو قرأه من حكايات وحوادث تدل على ذكاء الحيوان، كما ذكر في هذا الباب بعض الحقائق العلمية المتعلقة بسلوك الحيوان. أما الباب الثاني فهو في «ذكر ما ضربته العرب والحكماء مثلاً على ألسنة الحيوان» ويضم هذا الباب قصصاً تجري على ألسنة الحيوانات على غرار ما نجده في

كتاب كليلة ودمنة .

ويحفل الكتاب بأخبار أذكىء العرب المعروفين من أمثال دهاة العرب الأربعة: زياد بن أبيه، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة .

ومن الفقهاء: الأعمش، وأبو حنيفة .

ومن القضاة: شريح، وإياس بن معاوية .

ومن الخلفاء: أبو جعفر المنصور، والمعتضد بالله .

### البخلاء:

مؤلفه: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩-٢٥٥هـ) .

وهو من أقدم ما وصل إلينا من كتب أدب الفكاهة، وقد جمع الجاحظ فيه أخبار البخلاء وقصصهم ونواديرهم ودفاعهم عن البخل .

وقد استهل الجاحظ كتابه بإثبات رسالة سهل ابن هارون إلى بني عمه التي يحتج فيها لمذهبه في البخل، ثم ينتقل الجاحظ إلى موضوع الكتاب، فيبدأ بذكر نوادر أهل خراسان الذين عُرفوا بالبخل والشح ولا سيما المروزيين منهم، ومن ثم ينتقل إلى ذكر أخبار زملائهم في البخل: المسجديين من أهل البصرة .

ويتتبع الجاحظ أخبار البخلاء المشهورين من أمثال الحارثي، والكندي، ومحمد بن أبي المؤمل، وتمام بن جعفر، والأصمعي، وأحمد بن خلف، وخالد بن يزيد، وغيرهم - ومعظم هؤلاء من معاصري الجاحظ .

ثم يثبت الجاحظ رسالتين: إحداهما من أبي العاص بن عبد الوهاب

الثقفي في ذمّ البخل ومدح الكرم.  
والثانية جواب ابن التوأم على رسالة الثقفي في إظهار مفاصد البذل  
وما إلى ذلك.

ويختم الكتاب بالحديث عن أطعمة العرب ونيرانهم وما يتصل  
بذلك من كلام في القرى والكرم.

## رسالة التربيع والتدوير:

مؤلفها: الجاحظ.

وهي رسالة طويلة كتبها الجاحظ في هجاء أحمد بن عبد الوهاب،  
وقد تجلّى في هذه الرسالة فن الجاحظ في السخرية والتهكم، إذ لم يعمد  
في هجائه على السبّ والشتم، بل على السخرية اللاذعة والتصوير  
الكاريكاتوري المضحك، فتناول الجاحظ أولاً صفات ابن عبد الوهاب  
الخلقية وما عليه من قبح ودمامة، فربّعه ودوّره ومسّخه مسخاً، ومن هنا  
جاء اسم الرسالة «التربيع والتدوير».

ثم تناول بعد ذلك صفاته المعنوية، فجرّده من كل معرفة، ونفى عنه  
الذكاء والفهم، ثم وقف وقفة طويلة عند تقدمه في السنّ، فجعله قد فات  
التاريخ وأدرك عهد نوح، فسأله عن كثير من الأمور التي يرجع تاريخها  
إلى قديم العصور كالطوفان وسيل العرم، ويطول في ذلك إطالة شديدة،  
ثم يطرح عليه جملةً من المسائل التي قصد أن يتحداه بها ويفضح جهله،  
وقد ضمّن أسئلته تلك جميع معارف عصره من الفلسفة، والكيمياء،  
والإنسان، والحيوان.

وتعتبر رسالة «التربيع والتدوير» انطلاقة جديدة لأدب الفكاهة، فقد  
ارسى الجاحظ بها دعائم فنّ من فنون أدب الفكاهة ألا وهو الأدب النثري

الساخر الذي يعتمد على إبداعه وخياله المحض متجاوزاً بذلك الإطار التقليدي في التأليف الأدبي الفكاهي الذي يعتمد على مجرد جمع النوادر والملح من بطون الكتب وأفواه الناس.

### الفاشوش في حكم قره قوش:

مؤلفه: الأسعد بن مَمَّاتي (٥٤٤-٦٠٦هـ).

وقد صنف ابن مماتي عدة كتب، لكن شهرته قامت على كتابه «الفاشوش في حكم قره قوش» ويتحدث هذا الكتاب عن شخصية حقيقية عاصرت ابن مماتي هي «بهاء الدين قره قوش» أحد قواد صلاح الدين وأعوانه المقربين.

ويضم هذا الكتاب مجموعة من النوادر والحكايات الطريفة المضحكة التي تصور قسوة قره قوش واستبداده وحمقه في أحكامه، وغفلته وبلاهته ومجونته، كل ذلك بأسلوب فكه يعتمد على السخرية اللاذعة والتهكم المرير.

لا شك أن كتاب «الفاشوش في حكم قره قوش» يخلو من أية قيمة تاريخية، إذ لا يمكن الركون إليه كوثيقة تؤرخ حياة بهاء الدين قره قوش، فمن الثابت أنه كتاب ملفق، وجميع ما فيه من قصص ونوادر من نسج خيال ابن مماتي الذي اختلقها ولفقها من بنات خياله، ونسبها ظلماً إلى قره قوش ليسوّه صورته في عيون الناس<sup>(١)</sup>.

لكن القيمة الحقيقية للكتاب تكمن في مضمونه الفكاهي الساخر، فهو - كسابقه (رسالة التربيع والتدوير) - من بواكير الكتابات الأدبية

(١) انظر في ذلك: نقد ابن خلكان لكتاب الفاشوش ودفاعه عن قره قوش في: وفيات الأعيان ٩٢/٤.

الساخرة التي تعتمد على موهبة الكاتب الأدبية والفكاهية بآن معاً،  
وقدرته على إبداع الثر الساخر والشعر الهازل.

### نزهة النفوس ومضحك العبوس:

مؤلفه: أبو الحسن نور الدين علي بن سودون.  
وقد تقدم الحديث عنه.



## المراجع

- ١ - إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي - بيروت: دار المعرفة.
- ٢ - أخبار الحمقى والمغفلين: ابن الجوزي - تحقيق: محمد شريف سكر - بيروت: دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى: ١٩٨٨.
- ٣ - أخبار الظُّرَّاف والمتماجنين: ابن الجوزي - تحقيق: عبد الأمير مهنا - بيروت: دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى: ١٩٩٠.
- ٤ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر - تحقيق: علي محمد البجاوي - بيروت: دار الجيل - الطبعة الأولى: ١٩٩٢.
- ٥ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير - تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود - بيروت: دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى: ١٩٩٤.
- ٦ - الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض - بيروت: دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى: ١٩٩٥.
- ٧ - الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني - تحقيق: إبراهيم الأبياري - القاهرة: دار الشعب، ١٩٦٩.
- ٨ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين السيوطي - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة: مطبعة عيسى البابي

الحلبي، ١٩٦٤.

- ٩ - بهجة المجالس وأنس المجالس: القرطبي، تحقيق: محمد مرسي الخولي - بيروت: دار الكتب العلمية.
- ١٠ - تاريخ آداب اللغة العربية: مصطفى صادق الرافعي، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٩٧٤.
- ١١ - تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي - بيروت: دار الكتب العلمية.
- ١٢ - تذكرة الحفاظ: الذهبي - بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ١٣ - جمع الجواهر في الملح والنوادر: إبراهيم بن علي الحصري القيرواني - تحقيق: علي محمد البجاوي - القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٣.
- ١٤ - سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي، تحقيق: مأمون الصاغرجي وشعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية: ١٩٩٢.
- ١٥ - السيرة الحلبية في سيرة الأمين، المأمون: علي بن برهان الدين الحلبي - بيروت: دار المعرفة.
- ١٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد - تحقيق: محمد الأرنؤوط - دمشق: دار ابن كثير - الطبعة الأولى، ١٩٩٣.
- ١٧ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوي - بيروت: دار مكتبة الحياة.
- ١٨ - العقد الفريد: ابن عبد ربه - شرح: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٣.
- ١٩ - عيون الأخبار: ابن قتيبة - تحقيق: د. محمد الاسكندراني -

- بيروت: دار الكتاب العربي - الطبعة الأولى، ١٩٩٤.
- ٢٠- الفكاهة في مصر: الدكتور شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.
- ٢١- فوات الوفيات: محمد بن شاكر المكتبي - تحقيق: د. إحسان عباس - بيروت: دار صادر.
- ٢٢- لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني - بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - الطبعة الثانية، ١٩٧١.
- ٢٣- محاضرات الأدباء: الراغب الأصفهاني - بيروت: دار التراث العربي.
- ٢٤- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ابن منظور - تحقيق: مأمون الصاغرجي وأحمد حمامي - دمشق: دار الفكر - الطبعة الأولى: ١٩٨٤.
- ٢٥- المُرَاح في المُرَاح: بدر الدين محمد الغزي، تحقيق: أحمد عبيد - دمشق: المكتبة العربية، ١٩٣٠.
- ٢٦- المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين الأبهسي - بيروت: مؤسسة عز الدين، الطبعة الأولى: ١٩٩١.
- ٢٧- معجم الأدباء: ياقوت الحموي - بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ٢٨- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: القسطلاني، تحقيق: صالح أحمد الشامي - بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩١.
- ٢٩- الوفا بأحوال المصطفى: ابن الجوزي - تحقيق: مصطفى عبد

الواحد - القاهرة: دار المكتب الحديثة.

٣٠- وفيات الأعيان: ابن خلكان - تحقيق: د. إحسان عباس - بيروت: دار صادر.

٣١- نثر الدر: الآبي - تحقيق: محمد علي قرنة - القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨١.

٣٢- نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

٣٣- نكت الهميان في نكت العميان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد زكي - القاهرة: ١٩١١.

٣٤- الأعلام: خير الدين الزركلي: بيروت: دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٩٧.

٣٥- البصائر والذخائر: أبو حيان التوحيد، تحقيق الدكتورة ودا القاضي - بيروت: دار صادر ط ١، ١٩٨٨.

## فهرس الكتاب

- المقدمة ..... ٥
- المزاح في حياة الرسول ﷺ . . مدخل فقهي ..... ٩
- نعيمان الأنصاري . . الصحابي الظريف ..... ١٨
- الأعمش . . الفقيه الظريف ..... ٢٤
- الشَّعبي . . فقيه الكوفة الظريف ..... ٣٠
- أشعب . . أمير الطفيليين ..... ٣٦
- أبو علقمة النحوي وعجائب اللغة ..... ٤٧
- أبو دلامة نديم الخلفاء ..... ٥٦
- أبو الحارث جمين ظريف المجالس ..... ٦٧
- ابن سودون إمام الشعراء الهازلين ..... ٧٤
- أبو العيناء والنكتة اللاذعة ..... ٨٦
- مُزبَّدالضاحك المضحك ..... ١٠٥
- بخلاء العرب ..... ١١٢
- مصادر أدب الفكاهة في التراث العربي ..... ١٢٢
- المراجع ..... ١٣٨
- فهرس الكتاب ..... ١٤٣



لعل العزاء الوحيد لأدب الفكاهة هو هؤلاء الذين عشقوا الفكاهة والمرح، وأنا واحد منهم، شُغفتُ - ولم أزل - بالأدب المظلوم، أدب الفكاهة. وتعلقت به منذ سنّ اليفوع، ومع مرور الأيام، واشتداد المحن وتراكم المسؤوليات، كنتُ أحنُّ إلى دقائق، مجرد دقائق من اللهو البريء، والمزاح اللطيف الذي يُذهب عن النفس همومها وآلامها، ويعيد إلى الذهن صفاءه واتقاده بعد طول اشتغال وانشغال.

فرحت أروي ظمئي، وأرضي نفسي التواقّة إلى الفكاهة بالرجوع إلى خزانة الأدب، باحثاً، منقباً، علّني أعثر على ضالتي ومبتغاي.  
هناك في كل منهما، في خزانة الأدب، قابلت أدب الفكاهة.

أخذت بيده  
لون من ألوان  
حلاوة العبارة  
لنفسه قوالب  
وقصر الأقصو  
قررت أن أ  
زحمة العمل  
عشت لحد  
والمرح، وصا  
وطرائفه.

، ونفضت عنه غبار الزمن والنسيان والإهمال، فإذا أنا أمام الأدب يجمع في داخله كلّ أركان الصنعة الأدبية المتقنة، من ورشاقة الأسلوب، وظرف المعاني، وقوة السبك، ويتخذ أدبية عديدة: الشعر تارة، النثر المسجوع والنثر المرمق رصة أحياناً.

صادق أدب الفكاهة، ورحت اختبر لحظات الفراغ لأقلل من عالم الظرف والدعابة، عالم أدب الفكاهة.

طيات شيقة ممتعة وأنا أجول في أجواء الفكاهة والدعابة حبنا أدب الفكاهة لا يبخل علي بنوادره، ولا يضمن بمُلحه

إياد فرعون



جرؤس برس